/HmsNahnah

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ المجاهد الرئيس

محفوظ نحناح

رهافة حس و براعة ذوق؟

سطور دافئة

محمد براح

بسم الله الرحمن الرحيم

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً }

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

من صدق حبنا نكتب الكلمات، ومن نبض قلوبنا ننتقي الكلمات، ومن وهج الوفاء للراحل نختار الكلمات، إلى الذي لم يكن رجلا فحسب، ولكنه صنع الرجال وعلمهم كيف يقفون، وهو يدرك أنهم لن يتركوا رايته من بعده تخفض.

إلى الذي حررنا من ذل التزاحم بالمناكب إلى رحمة الولاء الصادق لله وللدعوة.

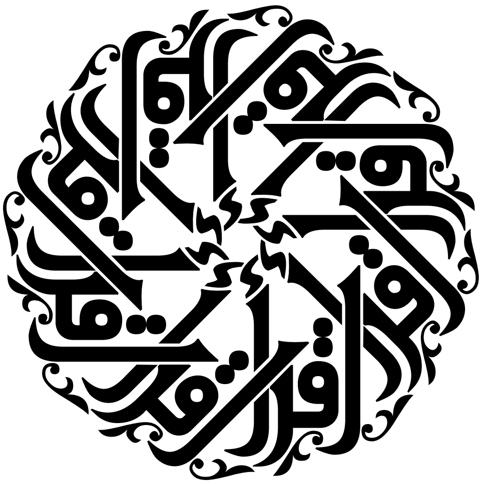
إلى الذي زهدنا في المغريات ومات ولم تدنس نفسه المغريات، فعلمنا بالقدوة فكان الدرس أبلغ، والكلمات أشد ولوجا إلى القلوب وأكثرها التصاقا بالأرواح .

ربما لم نفهم بعد سطور رسالته من بعده، فتشبثنا بالاسم ونسينا جوهر ماتركنا عليه الشيخ الراحل.

ومات الشيخ يدفن أسراره معه رحمة من الله بنا وببعضنا، وإلا فإن الصف في حاجة إلى مذكراته التي لم يكتبها، وفي حاجة إلى شهادته وهو يشق طريق الدعوة، وشهادته على العصر، لكن الفجر الصادق الذي تنبأ به الراحل مؤذن بالانبلاج ليشع نوره على الآفاق.

لم يكتب الشيخ مذكراته، ولم يمهله القدر أو ربما لم يكن القدر معنا حتى نحمل القلم ونكتب منه وصاياه، وننقل عنه بعض الذي يريد البوح به في لحظات الخلوة مع النفس ومع الله، لكننا من موته

كتبنا أشياء كثيرة، وبعد موته كان علينا أن نعيد فصول الحكاية وأجزاء الدرس ، ويوم المؤتمر تعلمنا من الراحل العظيم أنه كان عظيما بحق ، لقد علمنا لنعلم غيرنا فكان لنا ذلك، وأرجو أن أكون قد بلغت الرسالة واضحة إلى القارئ الكريم .



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

هل من المفيد أن نسجل تجربتنا مع الحياة مهما كانت بساطتها وكيفما كانت ضحالة مانقيده على دفاترنا البسيطة؟

هل نرصد الفواصل التي استوقفتنا واستنطقتنا، لنقدمها للجيل فيستنطقها أيضا ويستخرج منها أهم ما يفيده في حياته؟

ربما لا نستطيع جرد كل ذلك خوفا من أن يقال عنا إننا نحب الذات، ونكرس الأنا، وعلينا أن نترك الآخرين يتحدثون عنا، فأقول: إننا أولا وأخيرا ومع مراعاة أدب اللباقة واللياقة أحرار فيما نكتب، ومتحملون تبعات ما نكتب، ولنا أن نختار نحن نمط العيش الذي نرغب والدرب الذي نسلك، وليس لأحد سلطان على فكرنا إلا سلطان الله، فقد خلقنا أحرارا.

ربما احتكر المجال بعض أنصاف المثقفين وأرباعهم فتراهم يسجلون أذكارهم و يكرسون التكرار الممل، ويبشرون لأفكارهم دون أن تكون لامعة براقة، ومع ذلك تجد حولها جمهورا ملتفا عن وعي أو عن غير وعي يهتف بحياة تلك الأفكار؟ هل نفتح الفواصل بعد النقاط التي وضعناها عند نهايات الجمل التي انتهت معانيها لنعود إلى سطر جديد لسنا ندري متى توضع له نقطة النهاية؟

هل من الوفاء أن نتكلم عن آخرين نحبهم لكننا أثناء ذلك سوف نبرز ذواتنا فنتحدث عن بشيء عن أنفسنا، فينشأ لنا حيز فيما نكتب فنكون راصدين طريق البريق لاهثين وراء اللمعان، أم أننا خشية الوقوع في ذلك المحذور نتحاشى ولوج هذا الدرب فندفن في داخلنا ألحفة الدخان وجذوة اللهب، فتذبل شجرة الحب التي ورفت ضلالها، وينعت ثمارها، واحتضنت أجمل أيام عمرنا، وبعدها نترك كل ذلك رمادا باردا، وحروفا بكماء لا تفصح ولاتبين.

لكن ما الذي سيحدث لو أن الذين نحبهم رحلوا عنا ولم يشهدوا ميلاد ما نحب أن نكتبه لهم وعنهم ، ونقدمه عربون محبة صادقة ووفاء نادر دون طلب لجزاء ، ولا تثمين لعرق أساله الحب، ونسجت

خيوط خيمته الطاعة، وصهرته أيام دربنا الصعب ولياليه الحالكة؟ أليست الصحبة هي التي دفعت بأبي بكر أن يجود بكل ماله في هجرة تحدق بها الأخطار، وتحمل التبعات حين قال: لئن كان محمد قد قال فقد صدق، يأتيه الخبر من السماء فأصدقه ، فكيف في هذا؟

ماذا نكون عندما لا نكتب شهاداتنا عن الذين نحبهم؟ ماذا نكون غير أخشاب باردة وأصنام من طين أو حجر؟ ماذا نكون غير جماد هامد، وركام بين أطلال سكنتها الغربان، وناح على رحيل أصحابها اليوم، وتناساها الأهل والأحبة، وعندها نصبح لا شيء في تراكمات الحياة؟

الساسة والعظماء والقادة والدعاة وأصحاب المشاريع العظيمة والعمالقة يعرفون عادة بجانب حياتهم الذي أبدعوا فيه وتخصصهم الذي اشتهروا به وعرفهم الناس من خلاله، وتغفل جوانب أخرى من حياتهم وهي أكثر من مفيدة لأنها تحسم عملية التقييم لصالحنا، وهي الجانب الحسي الذوقي، وبراعة فن صناعة الحياة و الناس معا، وقد يقول القائل إن هذا تجسيد للشخصانية، وتعميق لما يقال بتأليه القيادة، أو إحياء لبدع قديمة ماتت كانت مغالية في تقديس الزعامات، أو التمسك بالشخصية التي تلعب دور البطل، حتى إذا لم نجدها تخيلناها وصنعناها من أوهامنا، أوربما التمسناها من تجنيح الخيال فأقول : دعونا فقط نعرض أفكارنا في هدوء، وليكن العقل حكما بيننا، ولنفهم بعيدا عن العواطف الجياشة والخيال الجامح، وأثناء ذلك يدرك الناس أننا مغرمون عن وعي، ومحبون عن اقتناع.

الحركة الإسلامية في الجزائر قليلة الكتابة، وتكاد تقتنع أنها لا تحتفظ بمذكرات عملها، ولا بخطط المنجزات العظيمة التي أنجزها أبناؤها المخلصون، وهناك شح كبير في التأريخ لهذه الحركة الفتية بعد الاستقلال مما جعل تجربة العاملين متواضعة جدا في أعين غيرنا من أهل المشرق الإسلامي مثلا في الوقت الذي تتمتع بأقلام فذة،ومفكرين ودعاة وعلماء يعتبرون عملة نادرة جدا في هذا الزمن الموسوم بالقحط والجفاف .

إننا نتعلم من تجارب الكبار كيف نرتقي، وكيف نكبر، وكيف نعلو، وكيف نتطور، وأثناء ذلك كله تستوقفنا مثل هذه المحطات، فنجعلها استراحة لقافلة الدعوة، يتجدد من خلالها النفس، ويأخذ

السائرون قسطا من الراحة، هي استراحة محارب تلفع ثوبه بغبار المعركة ودخانها، ثم يعودون لمواصلة الطريق، هي فواصل قصيرة لكنها مفيدة للسائرين على الدرب، نرصدها بقالب شعري قد يسوق النفس إلى الرفع من الحس الفني، ويجعلها تتوق إلى معاني الجمال، فإذا كانت الإبل لا يحركها إلا الحداء، فما الذي يفعله الشعر بالنفس البشرية إذن؟ ومن لم تستهوه الكلمة، وتحركه الألفاظ فهو ميت القلب بارد العواطف، بل لا قلب له، وله أن يبحث لنفسه عن عالم آخر يعيش فيه .

ثم إن الذي أتاح الله له فرصة الالتقاء برجل في حجم الشيخ محفوظ نحناح ووزنه وقامته لا شك في أنه يحبه ويجله ويحترمه، فالرجل فعلا يحب، وهذه العبارة تناقلتها أفواه متعددة وفي ميادين شتى، داخل البلاد وخارجها، ورصدتها من أفواه المحبين والعاذلين حتى لا أقول الخصوم، ولئن جمعني بالشيخ أكثر من رابط، فإن مسيرتي الفنية مع هذا الرجل الفذ تستدعي مني ومن باب الإنصاف ثم الوفاء أن أدلي بشهادتي على هذا الرجل كما عرفته خلال هذه المدة الوجيزة جدا.

وتبدأ الحكاية:

من المفيد أن نبدأ الكلام من حيث بدأت حكايتي مع هذا الشيخ الفاضل، ومع بداية رحلة البحث التي كانت أولى فصولها في شريط سمعته منه، فشعرت أن قلبي يميل إليه، لم أكن مهتما بتفاصيل الخطاب بقدر ما شدني إليه بيانه ، وقد اعتدت سماع الخطب من بعض الدعاة في قطرنا دون تصنيف لتوجهاتهم ومرجعياتهم الفكرية،لأننا وقتذاك كنا نعيش زمن الأحادية، ولم نكن نفرق كثيرا بين الأشياء ،فكنت أنصرف إلى وجهة أخرى مجرد وقوع هؤلاء في أخطاء مشينة جدا في اللغة،وأحيانا في التصورات ،ثم يأتي بعد ذلك الأسلوب ومنهجية الطرح، ولم يشد انتباهي أحد كما فعل هذا الشيخ الفاضل الذي كان بارعا في تحريك كل حواس الإنسان، سلامة في النطق، واستدلال بالقرآن الكريم بلغة معاصرة مغايرة تماما لما تعودنا سماعه، واستنباط من السيرة النبوية قمة في الطرح وبشكل ملفت وأسلوب خلاب، مع فصاحة في اللسان قل أن تجدها في غيره من الخطباء ممن يعتلون منابر الخطابة، ولست

أدري لماذا وفي ذلك الزمن كنت أبحث عن الجودة هروبا من الرداءة ؟جودة لم أجدها إلا في هذا الشيخ بهذه المواصفات وبهذه المقاييس، وتلك من علامات القيادة وإمامة الناس وتوفيقات الله لعباده يمنحها لمن يشاء وكيف يشاء .

لم أكن شاعرا يومذاك ، ولا فكرت في أن أكون شاعرا إلى أن جاء عام 89 حين كتبت أول خاطرة جمعت حروفها من المعاناة والبعد عن الأهل، ولم أكن أدري أنني على موعد مع وافد جديد اسمه الشعر، لقد جاءني على غير ميعاد، ربما كان في البداية متلثما، غير أنه صار واضح المعالم ، مكتمل الملامح،تماما كما الجنين، وانطلقت الحكاية فانطلقت معها متسلقا بصعوبة، أعثر أحيانا حتى أقول لا نهوض بعد اليوم، لكنها طبيعة المرحلة وعسر المخاض، وإذا كنت مستغربا أن أصبح شاعرا، فالغرابة الكبرى في أن يسمعني هذا الرجل الذي تعلق به قلبي دون أن أراه، وما عرفته إلا عن طريق بعض الكلام المنقول عنه من هنا وهناك،زمن السرية، وربما كان الشريط السمعي الذي سربه إلي أحد الإخوة خلسة واحدا من الوسائل التي دفعتني إلى هذا الطريق.

وكان أول لقاء:

حل الشيخ محفوظ على ولايتنا ضيفا ، ليست هذه أول مرة له ، ولكنها أول مرة لي،فقد كنت بعيدا عن المهام التنفيذية التي ربما تتيح فرص اللقاء بالشيخ أكثر من أية مهمة أخرى، كان الشيخ يدعو الجزائريين إلى إطفاء نار الفتنة التي اشتعلت في البلاد خاصة عام 93 حين تأججت نار الفتنة ، وراحت عمليات الاغتيال والقتل تطال خيرة أبناء الجزائر وتستهدف المثقفين والعلماء والصحفيين وخيرة رجال الأمة من النخب الممتازة ، يومها لم يكن يجرؤ على الكلام أحد باسم الإسلام المعتدل الذي يشجب هذه الأعمال إلا هذا الشيخ فكانت الضريبة غالية جدا.

فعرضت فكرة إلقاء قصيدة شعرية بالمناسبة، فكانت الموافقة على ذلك صعبة ، فالإخوة في المكتب التنفيذي والمنظمون لم يتعودوا على ذلك، وبين مؤيد ومعارض استقر الأمر على القبول بإلقاء القصيدة لكن مع تحديد الوقت، والتحذير من الخروج عن الموضوع، لقد شعرت بالخجل قليلا ، والتزمت بقواعد العمل، وقبلت العرض بالشروط المطروحة أمامي رغم قسوتها، غير أن الدعوة تلزم الكل بالتحمل والصبر على بعضنا، ووصل الشيخ واعتلى المنصة هو والوفد المرافق له، وجلست مع الحضور أنتظر دوري، وأستجمع كامل قواي، وأستحضر كل الأدعية طالبا من الله التوفيق، إنها المرة الأولى أمام هذا الشيخ الأريب الأديب المتخصص لكنه القائد، وأمام قاعة تغص بالحضور، لقد كانت معظم تجمعاته حاشدة جدا، إلى درجة استحالة تنظيم الوافدين أحيانا،وتمنيت لو كنت فنان لاستجمعت صورا تبرز تزاحم الحشود عليه من الوافدين إليه من كل مكان، لقد كان مجيء الشيخ إلى أية ولاية يعتبر عيدا كبيرا وليس مناسبة سياسية أو دعوية فقط ، وجاء دوري، فصعدت لأسمع الحاضرين قصيدتي الميمية بعنوان ((نوفمبر))لم أكن منشغلا بشيء مما حولي حتى كأني لم أعد أرى شيئا رغم الحضور الذي غصت به القاعة، وإذا كنت أنسى فلن أنسى أبدا دعم الجمهور الذي تذوق هذه القصيدة المولود الجديد،كان الجمهور أحيانا يصفق ، وأخرى يكبر ، فالتكبير آنذاك كان اللغة السائدة للتعبير عن الانفعال في تجمعاتنا الضخمة ، ثم سرعان مابدأ يخبو مع موجة التكيف الجديدة، ونزلت من على المنصة، وقلت في نفسي: لقد نجحت القصيدة عند الجمهور فالحمد لله تحقق جزء من الهدف ، لكنني وبعد انصرافنا إلى تناول الغداء أخبرني بعض الإخوان أن الشيخ بكى، أنا لم أكن أرى شيئا،وضعية الوقوف في المنصة موازاة مع الشيخ، وما يحدث للإنسان من اعتلاء المنصة لأول مرة كل ذلك لا يتيح لي فرصة النظر إلى الآخرين والتركيز على ما يفعلون، لم أصدق ما حدث حتى وقفت على ذلك بنفسي حين رأيت الشريط.

لكن المذهل هو أن الشيخ دعاني مرة أخرى لأقترب منه، وطلب مني قصيدة أخرى، فوقع اختياري على قصيدة ((الضاد))كانت الأقدار وحدها تحدد الموضوع بعدما حددت الزمان والمكان، فقد بدأنا بنوفمبر ثم الضاد ليبكي الشيخ مرة أخرى لكنني هذه المرة كنت أراه، فأنا قريب جدا منه، وبانتهاء القصيدة

ظننت أن دوري انتهى عند هـذا الحد فتركـت المكـان لغـيري، لكننـي فوجئـت بالشـيخ يـدعوني وأمـام الجميع يطلب مني حضور تجمع بقاعة "ابن خلدون" بالعاصمة وإلقاء القصيدة نفسها التي ألقيتها في تجمع المسيلة والنفقات على عاتق المكتب الولائي ، وأذكر أن الأسـتاذ الفاضـل الشـيخ 'محمـد مخلـوفي' تولى ذلك بنفسه، وتلك شيمته في دفع العمل إلى الأمام فهو لا يعرف التردد أبـدا ،ولا يعـد هـذا العمـل كله إلا إخراجا طيبا من إخراجات الشيخ وإبداعاته الطريفـة اللطيفـة التـي لا تنسى ـ فصـارت المناسـبة سعيدة جدا، أخذت بهذا الموقف كل الاحترام ، وافتككت حريتي فصارت القصيدة لا تناقش إدراجـا ولا إنتاجا مع احترامي الكامل لتقديرات إخواني في المكتب الولائي، لأن هذا الأمر يعد شيئا جديدا في العمل السياسي بمفهومه الحزبي، وقد تعلمت كيف أسير بهدوء وبطء لكنني موقن بالوصول، مادمـت أتعامـل مع شيخ مرهف حساس، ومما أذكر أنني عندما ألقيـت القصـيدة نفسـها في قاعـة "ابـن خلـدون "كـان الجمهور هناك متفاعلا جدا، أما الشيخ فلم يتمالك نفسه مـما أدى بـه إلى البكـاء عـلى الـرغم مـن أنـه سمع القصيدة بالمسيلة، ولا أخفي أنني كنت على شيئ كبير من الراحة هـذه المـرة، واعتقـدت النجـاح للقصيدة مسبقا، ليس غرورا لكنها الثقة في كون الشيخ معي، فهـو الـذي سـيمنحني توقيعـه الخـاص ، فكان منه التوقيع وأي توقيع، وقد حدث ما يثير الاهتمام حقا في هذا الشـيخ ، إذ أنـه وأثنـاء مداخلتـه الرسمية في هذا الحفل الذي يقام على شرفه باعتباره السيد الـرئيس، وهـو يحـاور الحضـور ويـدعو إلى تشكيل" كومندوس سياسي وطني " وكان هذا المصطلح جديدا في الساحة السياسية ، ومن ابتكار الشيخ واجتهاداته الصائبة ونظراته الثاقبـة للأشـياء، وراح يحلـل عنـاصر الأزمـة ويعطـي الحلـول ويقـول:" إن الجزائر حررها الجميع ويبنيهـا الجميـع" وهـذه الجلسـة كانـت بدايـة مـيلاد هـذا المصـطلح في الحيـاة السياسية، هنا تطرق الشيخ إلى جمع طاقات البلاد، وعلمائهـا ومثقفيهـا في خنـدق واحـد، تحـت خيمـة هذا الوطن، وراح يشرح معنى الأبعاد الثلاثة للوطنية والديمقراطية والإسلام، وأثنـاء ذلـك لم يفـوت أن يقول بواضح العبارة،((وهذا الشاعر الفحل الذي أتانا من المسيلة عاصمة الحضنة، وكان يبتسم)).

أليس مهما أن نتوقف عند هذه المحطات النادرة في حياة السياسيين؟

ألا يعد الأمر ظاهرة تفرد بها هذا الرجل وحده على أقرانه ؟

أليس غريبا أن يتناول الشيخ مسألة الإبداع ليدرجها في خطابه الهام أمام السياسيين والمثقفين ورجال الإعلام ؟

ماذا بوسع ساسة اليوم أن يقولوا أمام بهرجة الجمهور وأضواء الكاميرات، غير كلام غارق في الشخصانية والتلاعب بالألفاظ، الشيخ وحده هو الذي اجتمعت فيه خصائص الرجل الإنسان الذي لم يحتقر جهد أحد حتى ولو كان هذا الأحد شاعرا.

كنت شاعرا حقا حين خصني القدر في أن يسمعني الشيخ برهافة حسه ولو خيرت بين قصيدة يسمعها الشيخ فأبكيه، وقصيدة يسمعها أحد ملوك الدنيا وزعماؤها ويكون لي العطاء والنوال لاخترت الأولى، ما قيمة النوال الذي آخذه من أبكم لا ينطق أو أصم لا يسمع أو وثن لا روح فيه غير أنه يملك الطيش فيسبل عنك ماله ويعاملك معاملة العبيد المتسولين الباحثين عن طعم الصدقة والإحسان.

تعال وأسمع الشيخ شعرك وانظر كيف يسبح بروحه وحسه وجوارحه في الكلمات والمعاني ويسكب الدمع غزيرا ثم قل لي بربك كم ثمن هذه القصيدة مقابل قصيدة تقرأها أمام قوم لا يفقهون من الشعر إلا كلمات الإطراء والمدح والثناء.

اقرأ قصيدك أمام شيخ عليم بأسرار اللغة العربية، ضالع في أدب السيرة وفنون النظم واحكم لنفسك أو عليها.

وليس من عادة السياسيين عندنا في الجزائر أن يفعلوا ذلك، وقد تفرد الشيخ بهذا الأمر وما سبقه إليه أحد ، وبعد ختام التجمع وفي القاعة الشرفية حين قدم إليه الصحفيون ناداني الشيخ وطلب مني قصيدة الضاد ،وكم كان مسرورا جدا بسماعها، مهتما بتفاصيلها فالرجل مبدع يتذوق الفن ويحترم أهله، بل ويقدمهم في محافله الكبرى ، ويدعهم يبدعون ربما على حساب الوقت ، أو على حساب حصة المداخلة التي يحب زعماء السياسة التفرد بالحديث فيها، لكن الشيخ كان من طينة أخرى، تجاوزت

حدوده النظرة الضيقة، والأنا المقيتة، وانظروا إليه كيف قدم القصيدة ورفع شأن صاحبها في تجمع ابـن خلدون، وأنا ذلك الشاعر المبتدئ الذي لايزال يتعلم الحبو.

وهذا جزء من أول قصيدة سمعها الشيخ الراحل

الـــخالدون:

وقمت أفتش عن قبر أمي
أفتـش علي أزيح الركام
إلى صدرها ضمني دفء أم
فداوى حنان الفؤاد السقام
أفتش عنها لأعرف مـنها
جوابا لأمـسح هذا الغمام
أنقب عن دمعها كم تنزى
ألملم جرحي وأهتف ماما
أجيبي فقد كنت لاتبخليني
إذا جئت أنقل عنك الكلام
أيا أم قولي ألم تعرفـيني؟
أريحي فؤادي ودكـي الظلام

ثقي يابلادي ستبقين أمي
ولو أوقـد البغي نارا ضراما
أجابت بلادي وفي وجنتيها
دموعا تزيد الفؤاد اضطراما
"نفمبر"يشهد أني ولود
سلوا جرجرا أو سلوه الصومام
سلوا"ونشريسا" لقد كان بد
وأوراس يحفظ عنا الغرام
سلوا كل شبر وصحراءنا
وفجرا وجـرحا وموتا زؤاما
"نفمبر"يافاتح الفتح يامن
بخلفك سرنا فكنـــت الإمام
نفمبر من وحيه قد كتبنا
بطولاتنا والنشـــيد استقام

مع الشيخ في ثالث لقاء:

شاءت الأقدار أن يكون الدمع عنوان تلاقينا أيها الشيخ، ففي كل مرة تهزمنا الكلمات، وتنتصر فينا العواطف، حين يخدش أحاسيسنا صدق الكلمات، وتنهمر منا الدموع.

في كل مرة أيها الشيخ تبكي ،فنرأف بجراحك التي تتجدد دوما، وعلمتنا كيف تدمع العيون لأجل الوطن، وكيف يبكي الكبار وفاء للذين تفتقدهم الأمة ، وتفجع فيهم الإنسانية، علمتنا أنك لم تعش لنفسك، ولم تقبل عرض البائعين وسماسرة الزمن الأنكد، وعشت تحمل قضية، وتنافح عن عقيدة ، وترفع راية دين، وترسي ركائز دعوة،عبر سفينة لم يعنك على دفعها أحد، رغم أنك ناديت وطلبت العون ، فرحت تشق العباب وحدك ، فعرفت طريقك حين سخر من زورقك الآخرون، لم تلتفت ونظرت إلى الأمام حين رسمت لنفسك الهدف .

وأشهد أن دموع هذا اللقاء كانت من نوع خاص، والمناسبة كانت جد متميزة عن أية مناسبة أخرى، لقد التقينا هذه المرة على تأبين الشيخ الذبيح "محمد بوسليماني " الذي قدم رقبته للسكين ولم يقبل مساومة الأنذال ليفتي بإباحة دم الجزائريين، بعدما وقع في الفخ من وقع من علماء الأمة الذين أعانوا بالفتوى أحيانا، ومن لم يعن بفتواه أعان بصمته عن دماء الجزائريين وسط فورة وحماسة الشباب، فكان الشيخ الذبيح وكأنما صنعته الأقدار وأجلته لهذا اليوم بالذات، يوم لا يصمد فيه إلا الصادقون الذين باعوا أعمارهم لله، فكم ظهر عظيما، رحمة الله عليه، فاحتضنته السماء قبل الأرض، وسكن قلوب الملايين الذين أنصفوه وأحبوه، وخرج الآلاف يشيعونه، ولسان حالهم يقول : بيننا وبينكم الجنائز، في الوقت الذي لا يزال الغافلون السذج لا يعرفون ماالذي يجري بأرض الجزائر، ولا يكترثون لما يحاك ضد منهج الوسطية والاعتدال حين استهدفت هذه الحركة في رجالها ونسائها، واختارت الأعلام منهم، وكان الشيخ نحناح على رأس قائمة المستهدفين، وقد تعرض لعمليات اغتيال جبانة نجا منها بحفظ الله ولطفه، بعدما اغتالوا سائقه الخاص وعددا هائلا من خيرة إطارات الحركة وكوادرها، لكنهم لم يغتالوا في هذا

الشيخ قلبه، ولم يصلوا ليغتالوا فيه عزمه ولا فكره ولا مواقفه بل ظل شامخا يعري زيف الإرهاب ويفضح سماسرة الحرب الجدد، فكم كان يردد : الرشاش والغشاش والحشاش، وأرادت مشيئة الله ألا تصيب قذارة هؤلاء طهر الشيخ، ولم تلوث صفاءه .

لم تتح لي الفرصة أن أرى الشيخ الفاضل طيلة أيام العزاء، لقد كان منهارا جدا، وليس هناك من يجرؤ على التكلم معه، وقد تأثرت صحته بهذا الموت الفضيع الموجع للقلوب، ولم تستطع كلمات العزاء كلها أن توقف دمعه الهطال، أو تسعف جراح قلبه الراعفة، وتقدمت بمداخلة شعرية أدرجها المنشطون ضمن برنامج حفل التأبين بعدما حذفت منها بعض الأبيات، كانت قاعة ابن خلدون تغص بالحضور، وكان الشيخ على المنصة، وكانت فرصة لأقدم له العزاء وأسلم عليه وأنا في طريقي إلى حيث يجلس، وحين اعتليت المنصة حاولت كتم حزني كما يفعل الرجال، لكنني حين نظرت إلى الشيخ تضاءلت، وصغرت نفسي، ولم أصمد رجلا أمام هذا الجبل الأشم، وأمام هذا البركان الهائل الهادئ، كنت أقرأ وحينا بعد حين كان أنين القاعة ونحيب الباكين يرسم حولي سحائب سوداء قاتمة، أما الشيخ فالحديث عنه في هذه اللحظات مؤجل إلى حين .

لم يكن الشيخ إلا لوحة حزن قديمة جددها أمامنا وقع المصاب، ترتسم في عينيه البراءة والدفء معا،لقد حوله الحزن صورة مليئة بالخدوش والتجاعيد، كان يحدق بعينين أذبلهما التعب، وجعدهما الحزن البالغ فصار كما لو أنه طفل تركته أمه للزمن الصعب وحيدا ورحلت عنه، لقد كانت الدموع تسيل بلا توقف على وجنتيه ،تكتب على صفحات هذا الزمن ظلم الناس لهذه الحركة التي بدأت تثبت جذورها في عمق الأرض، فيحتضنها الناس، ممتزجة برائحة الإخلاص والوفاء، وتنبعث منها رائحة الأرض حين تبللها قطرات السماء فتصبح مستعدة للعطاء، والواقف أمام الشيخ ليس له إلا أن يشعر بشيئين مهمين، أولهما جلل المصاب، وثانيهما عظمة الرجل في الوفاء لأخيه الفقيد، حتى لم يعد هنالك من يجرؤ أن يقف أمام الشيخ من شدة الخجل ، لقد خجلنا من أنفسنا أمام هذا الجبل الذي ما تصورنا أنه يتزعزع بكل هذه الصورة، فاستطاع بلا كلام ولا عبارات خطب أن يختصر لنا صورة للشيخ الذبيح،

ويختزل الزمن ليرسخ في أذهاننا شهيدا لم نكتشفه إلا من خلال حزن العمالقة عليه، وقد كان مشهد هذا الشيخ من أبلغ مشاهد القاعة على الإطلاق، كما أنه مشهده كان من أبلغ مشاهد التأبين يوم أن وقف الشيخ أبو جرة سلطاني بكلمة أمام مئات الآلاف الذين جاءوا يشيعون الفقيد الشهيد، لقد كلفه الشيخ بذلك لحاجة في نفسه، فكان الاختيار الصائب في ذلك اليوم العصيب، حيث كان الشيخ أبو جرة حكيما في انتقاء الكلمات، وأختيار أنسب العبارات،لا أريد أن انقل كل ما قال من كلامه النهم جدا لكنني أعرج على عبارات مقتل عثمان بن عفان وقلت في نفسي- متسائلا؟ التاريخ لا يعيد نفسه بل يتجدد في هذه الجماعة التي أراد الله لها أن يكون الثمن غاليا جدا فالدم لا يقيم بأي ثمن، وكان الشيخ الراحل لوحة فريدة متميزة، ولو أنني أختار لأي رسام أن يرسم صورة حزينة معبرة صادقة لا تكلف فيها لاخترت له صورة هذا الشيخ في هذا المصاب،وفي لحظات الوداع التاريخي وفاء قل أن يتبادله المحبون فيما بينهم ، والله إنه وداع العاشقين، إنه رفيق دربه الذي اغتاله الآثمون، وأتوا على عمود من أعمدة السقف فحطموه وهدوه، أما الأستاذ أحمد الدوري بن أخت الشهيد فقد صرخ بأعلى صوته طالبا مني أن أتوقف غير أن المنظمين طلبوا مني إكمال القصيدة ولست أدري تماما كيف قيم الشيخ هذه القصيدة لأن الحدث كان أكبر من الكل ، فقد تجاوزنا الشهيد برحيله ، واكتسح طيف روحه العطرة المكان والزمان، لكن الذي قلته لم يكن ليساوي مقدار ذرة من دموع سالت مخلصة للراحل كلمة الشيخ وهو يؤبن أخاه ورفيق دربه، لقد حزنا لفقد شيخ تتلمذنا على يده وجلسنا أمامه جلوس الصغار في بداية الطريق، لكننا لن نكون أبدا كمن عايشه رفيق درب، واستعان به رجلا جبلا في الثبات على نوائب الحياة، ولئن كان الجرح واحدا فإن الألم مختلف، إن اللقاءات بالشيخ الذبيح كانت قصيرة، وقليلة غير أنه عاش رجلا مباركا ، وعملة نادرة في الورع والزهد والتقوى، تحبه النفس ويهواه القلب، وقد ترك رحيله فراغا لايسد، ولم يفتإ الشيخ يعدد مثالبه، ويذكر مآثره ويستشهد بأقواله كما يفعل كبار النفوس الملهمون، وفاء لأخيه ورفيق دربه.

هز الضلوع:

هز الضلوع مصابنا بممات *** أيغيب عنا صاحب البركات؟

لم يامحمد سرت دون وصية؟*** فالكون بعدك حالك الظلمات

عجلت ياشيخ الرحيل تركتنا*** من بعدكم نمضي إلى الفلوات

القصيدة منشورة كاملة في مجلة الإرشاد التي كانت تصدر عن جمعية الإرشاد والإصلاح ثم توقفت منذ سنوات، كما أنها مسجلة بواسطة جهاز السمعي البصري.

رئاسيات 95:

دخلت حركة المجتمع الإسلامي حماس معترك أول انتخابات رئاسية تعددية بالجزائر ، وبمشاركة أولى لحزب إسلامي في العالم العربي، وقد وقع الاختيار على الشيخ محفوظ نحناح مترشحا باسم حماس، بعد قرار مجلس الشورى الوطني، فما كان من الشيخ إلا أن يستجيب لقرار المؤسسة ، ومطلب الجماهير الذين أحبوه وهتفوا باسمه، فكان خروج الشيخ على شاشة التلفاز لإعلان نية الترشح مثيرا جدا، فقد طلع على الناس بقوله تعالى:" قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيئ قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب"

ثم تلا قول الشاعر:

بلادي وإن جارت علي عزيزة *** وقومي وإن ظنوا علي كرام

كانت هذه بداية الشيخ ليعلم الناس منهجنا في العمل السياسي، وكان الخطاب قصيرا جدا ولكن معانيه عميقة ، فخلف كل حرف فكرة كبيرة توحي بكبر حجم المسؤولية ،وتخبر عن رجل كبير ليس للصغار معه نصيب، وليس للتافهين في صفه حظ،كان خطاب الشيخ في جميع المناسبات مضبوطا بخطة وأهداف، وردد الناس خبر ترشح الشيخ بعد مهلة كبيرة من التفكير أسالت حبر الكثيرين، وانطلقت الحملة الانتخابية بداية بهذا الإعلان الهام في البلاد، لقد انطلقت قبل وقتها بترشح الشيخ، وتلك هي قيمة الأوزان الثقيلة، وكانت المسيلة على موعد مع ضيفها الذي اعتادت عليه واعتاد عليها، وأحبها وأحبته حين احتضنت مشروعه، من خلال نتائج الانتخابات، وكان الشيخ مرة أخرى على موعد مع شاعر يبكيه، والملفت للنظر هنا أن الشيخ لم يرني منذ زمن طويل، واعتقدت أن الشيخ لن يعرفني، وقد تغيرت ملامح وجهي، لأنني وبسبب الوضع الأمني حلقت اللحية، وهذا ماحدث للكثير من الشباب الجزائري، خاصة سكان القرى، لكن الواهم من اعتقد أن الشيخ ينسى، لقد ناداني باسمي وقال بدعابة عهدناها منه، وابتسامة عالج بها جراحاتنا كثيرا قال: لاقيمة للحفل بدون قصيدة، فسلمت عليه وقلت: بلى ياشيخ فأنا أتشرف بسماعكم.

حكمة وروية:

ولم تعد هناك مناسبة يحضرها الشيخ إلا والشعر معها، ومعها أيضا تعليق خاص من الشيخ ، وحركة متميزة يبديها تفاعلا مع الشاعر قبل وأثناء وبعد القصيدة، تهيجه آلام الأمة، ويبكيه ضعفها وهوانها، يعضد الكلمة الجريئة القوية، ويشيد بالموقف الحاسم الجاد، ثم لا يفتأ يثني على صاحب القصيدة، ولا يتردد عن القيام لاستقبال صاحبها، وما يمكن أن أسجله هنا أن الشيخ دعا كامل محبيه وأنصار مشروعه وحملة أفكاره إلى الانضباط والتحلي روح المسؤولية واليقظة والهدوء،وذلك بعد التزوير الشامل المركز الذي حدث في الرئاسيات، فكان الرجل حكيما خبيرا بشؤون البلد، وافر الذكاء ملما

بدقائق الأمور وتفاصيل المشهد السياسي ومكوناته، ينظر إلى الأشياء في غير شطط أو غلو أو ارتباك أو طيش، يتعامل مع الأشياء وكأنها لم تقع حتى يتعلم عنه أتباعه الصبر على تحمل الأذى، شديد الحرص على مصلحة الدعوة والوطن، ثاقب النظرة ،في حين كان الكل ينتظر أن تخرج الحركة إلى الشارع وتدفع إلى خيار المواجهة الذي رصدته بعض الدوائر المعروفة، غير أن الشيخ خرج على الناس ليقول لهم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليلزم بيته، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، والمتأمل لبيت الشعر الذي استهل به الشيخ خطابه المركز يدرك أنه لم يكن عفويا، وإنما هو استشراف لما سيقع، وتنبأ الشيخ بذلك قبل حلوله، وربما هامس بعضنا بذلك أحيانا.

بلادي وإن جارت علي عزيزة *** وقومي وإن ظنوا علي كرام

والموقف هذا كان نفسه الموقف الذي اتخذه الشيخ من أحداث التزوير في تشريعيات 97 فكان الشيخ يقول : لعل الله نظر إلى ضعفنا فأعطانا ما نطيق فقط، وطريق الدعوة شاق وطويل.

عام 98 المؤتمر الثاني للحركة :

كان انعقاد هذا المؤتمر في ظرف خاص جدا، صعدت الحركة للبرلمان، لكن الجو كان مشحونا بالغضب والتذمر من جراء عمليات التزوير المنظم والشامل الذي طال الحركة، وقد كان الحضور نوعيا ومتميزا، باعتبار أن أوزانا ثقيلة جدا حضرت فعاليات حفل الافتتاح، بدءا برئيس مجلس الأمة، ورئيس البرلمان، وعدد من الوزراء وقادة الأحزاب السياسية،وسفراء بعض البلدان الصديقة والشقيقة، أما المناضلون فقد عاشوا على وقع الانكسار والإحباط وراح كل واحد منهم ينتظر فرصة للرد حيث أن القيادة أعطت تعليماتها بضرورة التزام طرق النضال السلمي فالظروف لا تسمح بالتصعيد، ثم إن منهجنا لا يسمح بذلك، كما لا يسمح به خطنا التربوي.

وأخيرا اجتمع المزور والمزور عليه وجها لوجه تحت قبة نادي الصنوبر، وتعاقب الضيوف على المنبر، ومن العادة أن تبقى قصيدتي إلى حين موعد كلمة الشيخ بقليل، وأخيرا جاء دوري، لم يكن بودي أن أقول شيئا سوى التحدث عن أمجاد الحركة وما قطعته من أشواط، لكن وجوه هؤلاء حركت بداخلي ثأرنا وجرحنا، فأدرجت أبياتا جديدة وأنا في الطريق إلى المنصة، وللأمانة فالأبيات ما اطلع عليها أحد ولا كانت بأمر من أحد ، وكل ذلك فعلته شاعرا بعيدا عن كل وصاية أو توجيه، وليس من عادتنا في الحركة أن يوجه القصيدة أحد فقد كنت أنعم بحرية مطلقة جدا، إلى درجة لا تتصور في زمن الموازنات، فقد كانت قصائدي تمر إلى المنصة دون أن تقرأها أعين الرقابة، أو تخضع للمقص، وهذا أمر يجب أن ننوه به داخل حركتنا التي لم تمارس أسلوب القمع كما هو الشأن في تشكيلات أخرى، بل إن هذا النموذج لا يوجد في غير هذه الحركة، ولم يوجد إلا لأن هذا الشيخ ذواق من طراز عال جدا مما دفع ببعض الإخوان أن تعجبهم القصيدة لا تمعنا في معناها لكن تماشيا مع رغبة الشيخ في ذلك، وأرجو أن تصحح الفكرة، لأن الشيخ سبق غيره بمسيرة أميال، وسبق زمانه حين استشرف المستقبل بهدوء جم، وفكر متزن لا تردد فيه.

الأبيات الجديدة كانت بمثابة الفتيل الذي أشعل القاعة بالهتاف، والتصفيق ثم ما لبثت أن رأيت جموع الحاضرين يقومون من أماكنهم، وعلا صوت التكبير و التصفيق، ولا أنسى زغردة الأخوات اللاتي كن يعضدن القصيدة بحناجرهن الدافئة ليشكلن أعراس الحركة وانتصاراتها، وطالبني الحضور بإعادة الأبيات التي أشارت إلى التزوير، وقد جاء فيها:

نحن اليد البيضاء تلمع في الدجى *** ما نجستها لوثة السرقات

كانت لنا جل الصناديق التي *** سرقت بمكر فاضح العورات

ياللمجازر ضد شعب كالح *** حسدوه في الأصوات والأقوات

وقد يقول القائل : لم يظهر دور الشيخ في هذه القصة مطلقا، وهنا لا بد من القول أن الشيخ كان مع القصيدة منذ بدايتها الساخنة، وقد لمست أثر الشجون على وجهه حين ذكرته برفيق دربه الشيخ الذبيح

محمد بوسليماني رحمة الله عليه، وبأمجاد الجزائر، صحيح أنني كنت بعيدا عنه، لكنني حين نزلت اتجهت صوبه لأسلم عليه كما جرت العادة بعد كل قصيدة ، وهنا تأكدت من أن الشيخ كان أقرب من الكل، ولعله كان أقرب واحد مني على الإطلاق، واكتشفت بأنه بكى، ومما يجب أن يذكر عنه في باب اللياقة والذوق أنه شديد الملاحظة قوي الحرص على بعض البروتوكولات المهمة مع الرسميين، لقد بادرني بأن أسلم على رئيس مجلس الأمة السيد (بشير بومعزة) أولا، ثم رئيس البرلمان السيد (عبد القادر بن صالح) لتكون رتبته بعدهما، فلم أسلم عليه إلا بعد هذين المسؤولين المهمين في البلاد وهما أعلى هرم السلطة بعد رئيس الجمهورية، وكان الشيخ يتوسطهما، وقد سر السيد' بومعزة 'لذلك كثيرا، وضحك لهذا السلوك الحضاري المتميز من الشيخ الذواق، ثم سلمت على وزير المجاهدين (محمد شريف عباس) والآخرين، ولم يفوت الشيخ هذه الفرصة في إبداء الأدب الجم والاحترام الرفيع لضيوفه الذين يقدرون جيدا فضل الشيخ ومكانته في الساحة السياسية والفكرية والدعوية داخل البلاد وخارجها.

ولا يفوتني هنا أن أشير إلى أن الحضور جميعا تعاملوا مع الأبيات هذه بروح أخوية عالية ، وقابلوها بابتسامات الفائز بالمقابلة على لا عب ماهر لا يمكن أن يغلب لو كانت قوانين اللعبة نظيفة، أو كان الحكم نزيها، وعندما جاء دور الشيخ لإلقاء خطابه وقف الجميع إجلالا له تماما كما يفعل بالزعماء الكبار، نعم، فلقد كان زعيما كبيرا في أعين كل الذين عرفوه ، ورحت أتتبع خطابه الذي أجمع الحاضرون على أنه خطاب القرن ، حيث كان الخطاب الوحيد الذي يحمل معنى المشروع بأسلوب حضاري رفيع المستوى، وفي أثناء حديثه لم ينس الشيخ أن يعرج على القصيدة وصاحبها ضمن خطابه على الرغم من أهميته،وصبر الناس انتظارا لما يقوله الشيخ المعبأ كل يوم بجديد، ولم تثقل كاهله الهموم ليقول : "وهناك أشياء عبر عنها الشاعر..... ، والشعراء لا يؤاخذون عما يقولون " وضحك الناس مرة أخرى، وصفقوا لأن إشارة الشيخ للأبيات كانت واضحة جلية، وأنعش الشيخ القاعة بأسلوبه المرح

المعتاد، إنه يضفي على التجمعات بهاء خاصا ، ونكهة متميزة، وجوا أريحيا بهيجا، ومع كل هذا فهو قادر في أية لحظة أن يسيطر على القاعة فيصمت الجميع كما لو أن على رؤوسهم الطير.

لقد حررني الشيخ بهذا الاستدلال وهذه الإشارة من عتاب المنظمين ولائمتهم، ولم يعتب حين اعتذرت له عن الأبيات وقلت له: اعذرني فلعلني ماكنت لبقا، وما كان يجدر أن أقول ماقلت دون استئذان، فعاملني الشيخ معاملة الكبار ثم قال : قل يا براح ، ولا تسل عن شيء وروح القدس معك، ثم أردف يقول: لقد قلت مالا أستطيع قوله أنا، وقد أرحتنا بأبياتك وأزحت عنا العناء، هكذا كان أدب الشيخ مع غيره، لم يرد أن يستغل الفرصة فيجرح مشاعر ضيوفه، لكنه احترمهم وأكبر فيهم حضورهم وتشريفهم ، فقد كان مؤتمرا جمع كل ألوان الطيف السياسي في الجزائر تحت قبة واحدة، وذلك حلم عمل له الشيخ كثيرا، فلا يحب أن ينغص هذه الفرحة بعتاب أو لوم.

والطريف في هذه القصة أن الشيخ ظاهرة فريدة في معايشته للقصيدة، وفي كيفية التعليق عليها، وقد عاشها مستمعا وعاشها خطيبا، وظل يذكرها كلما التقيته، وقد قال لي :لقد أرحتنا مما كنا نود قوله ولكننا لا نستطيع ؟

فأي حس هذا؟وأي ذوق ؟ وأية نباهة؟

داخل قصر الأمم بنادي الصنوبر:

عندما قام الشيخ ليعرض تقريره المالي والأدبي أمام الحضور، راح يشير إلى بعض المعاني العميقة في هذه الحركة ،غير أن رهافة الحس التي تطبع الشيخ دفعته إلى البكاء أحيانا على أهم العقبات التي تواجه الدعوة، فتذكر الشهداء، وتذكر رفاق الدرب، غير أن تلك الدموع راحت تتغلغل في قلب الشاعر، فرحت أنظم بعض أبيات وأنا في مكاني، وكانت الساعة متأخرة جدا وبمجرد أن أنهيت الأبيات أرسلتها إلى الشيخ أثناء جلوسه، فقرأها ثم أرسلها إلي وأشر عليها طالبا مني قراءتها على الحضور، وسرعان ماطلب

مني ذلك من طرف المنظمين، إنه لا يفوت أن يضع الشيئ في محله، وكان بإمكانه ألا يهتم وهو على ذلك الوضع بعد نزوله من المنصة.

وأقبل عام 99 وقرار الإقصاء المشؤوم

موعد الانتخابات الرئاسية قد قرب فراودتني فكرة تسجيل شريط شعري رفقة الأخ الصديق الشاعر "أحمد بن روان" وعرضت الفكرة على الأخ "عاشوري "المكلف بالإعلام، فكان من الواجب ومن اللياقة والأدب أن نخبر الشيخ بالمشروع الجديد استعدادا لخوض المعركة الانتخابية، وجعلنا الفكرة مناسبة للالتقاء بالشيخ، وحين صعدنا إلى مكتبه وبمجرد إخطاره خرج إلينا، وهنا لست أدري كيف أصف حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة، أما عن فكرة المشروع فلم يتردد الشيخ في إعطاء إشارة الانطلاق وتهلل وجهه ، ثم استدعى الأمين الوطني للإعلام وأعطاه التعليمات الخاصة بذلك، وأسمعنا الشيخ جزء مما نحمل رغم ارتباطاته الكثيرة، وهنا قام الشيخ فدخل مكتبه وأحضر قلمين جميلين قدمهما لنا هدية قائلا: لست هارون الرشيد وإلا كنت أكرمتكما بما يليق بالمقام، ثم أخرج آلة تصوير ووقف وسطنا فأخذنا معه صورة أو صورتين، ونحن لا تسعنا الأرض جراء هذا الترحاب من فضيلة الشيخ الكريم، كانت لحظات كلها للدعابة والمرح ولم يبد الشيخ أمامنا أي شعور بأنه على ارتباط أو شغل آخر ، فقد راح يعطينا من وقته كل الذي أردناه، وشرعنا في عملية التسجيل وخرج الشريط إلى الوجود بعنوان الشعر في مهب المعركة، غير أن الآثمين في هذا النظام الجائر سرقوا منا الفرحة بالانتخابات وأجهضوا عملية دخولنا فيها حين ظلموا الشيخ وظلموا المشروع الإسلامي وظلموا الشعب فصادروا حق الشيخ في الترشح بحجة واهية وكذب سافر فاضح،وزعموا أنه لا يملك ورقة يثبت بها جهاده في ثورة التحرير، بعدما شهد له بذلك المخلصون من خيرة أبناء الثورة وقادتها ومفجريها ومنهم الرجل الفاضل يوسف الخطيب الذي ثبت شهادته مكتوبة ،وأراح ضميره، وبرأ ذمته أمام الله قبل يوم القصاص الأكبر في

محكمة السماء، وإنما فعل الآثمون ذلك ليخلو لهم الجو وحدهم، وحتى لا يتكرر مشهد سنة 95 الذي بقي راسخا في أذهانهم وقبله مشهد 90/89 مع علم النظام بالفارق بين تيار وتيار.

محطات لم يكن فيها للنظام الحاكم نصيب، فلم يعد هذا النظام يسمح بتكرار هزائمه أبدا،كما أنه لا ينووي التخلي عن أساليب سحره القديم، وأرادها واجهة فقط، وظن الناس أنها فرصة ثمينة تمهد لولادة الحريات، وتؤسس لزمن التداول على السلطة عن طريق الاقتراع الحر والنزيه، واحترام إرادة الشعوب في اختيار حكامها،هكذا كان الاعتقاد السائد، ولا تزال القصة غامضة إلى اليوم في أسباب تنحية الشيخ وحرمانه من حقه، قصة تستوجب على أبناء الحركة النظر فيها بعمق لمعرفة المتسببين في ذلك، ومن الذين كانوا وراء القرار؟ حتى لا نعرض الذاكرة للتشوه الفكري، ونرهن التاريخ لعوامل النسيان أو النظر إلى الأشياء بسذاجة .

قرار الإقصاء وجناية العصر الديموقراطي الكاذب:

بعد قرار إقصاء الشيخ وإبعاده عن سباق الرئاسيات أصابتنا الحيرة وتملكنا الذهول، وبقينا لا نعرف ماذا نفعل؟ وتساءلنا لم كل هذه الضربة الموجعة بعد كل الذي قدمناه؟ فكان أن نظمت قصيدة بعنوان حسدوك، كانت سينية هاجمت فيها النظام الجائر ، وسلطت لساني على رئيس المجلس الدستوري ووصفته بأقبح الأوصاف، لأنه خرج علينا عبر شاشة التلفاز ذات مساء فكان يشبهها في العتمة والشحوب،كان وجهه مغبرا مصفرا، وعيناه تخفقان ، فلم يكن لونه لون البشر، وبقيت القصيدة تترنح داخلي، ويعذبني قيدها، فعزمت على إرسالها للشيخ فوقعت بين يدي الأستاذ الفاضل "أحمد الدان" ، فأسرع بها نحو مكتب الشيخ ، ومما روي لي أن الشيخ في ذلك اليوم كان مهموما إلى درجة لم يستطع أن يكلمه أحد، لكنه عند سماع القصيدة تهلل وجهه، واستبشر بعدما ذرف الدموع، واستعاد

نشاطه، وقد أخبرني صديق أنه التقى الشيخ وبمجرد أن رآه قال له: لقد بعث الشاعر الحضني بقصيدة سينية فكانت...؟وأثنى عليها بطريقته المعروفة.

وإنك لتلمح معي أن القصيدة تسكن الشيخ وتلازمه، فيعلق عليها ويتذكر أهم فواصلها ، في حضرة الشاعر أو أثناء غيابه.

قصة طريفة في مكتب الشيخ:

نظرا لارتباطات الشيخ الكثيرة وانشغالاته المتعددة فإننا نحرص على توفير جو الهدوء له، فلا نتردد كثيرا على مكتبه، ونكتفي فقط برؤيته من بعيد رغم اشتياقنا الشديد إليه وحبنا له، وتعلقنا به، وإذا كنت ناقلا للحقيقة فإن رؤية الشيخ تذكرنا بالله وتزيد من إيماننا ، أما الجلوس في حضرته فله طعم آخر تماما. لكنني هذه المرة عزمت على زيارته في مكتبه، فمعي قصيدة جديدة نظمتها بعد ظلم السلطة مجددا وتجنيها على حركة حماس والمطالبة بتعديل اسمها وقانونها وبرنامجها،وبدل "حماس " تيمنا بحركة المقاومة الإسلامية حماس في فلسطين ،طلب منا إرجاعها "حمس" في محاولة من النظام حتى يدفعنا إلى دائرة العنف كما فعل بمن سبقنا ، لكن القيادة تعاملت مع الملف بذكاء .

كان معي صديق فاضل وأخ عزيز ، وحين طلبنا من الكاتب الخاص للشيخ أن يأذن لنا بالدخول رفض وأبى، وأراد إرجاعنا رغم كل المحاولات، فقلت له أخيرا: نحن ماجئنا إلا لنسمع الشيخ قصيدة، ثم نعود أدراجنا ولن نطيل، فادخل إليه واخبره بوجودنا فإن رفض ذلك عدنا، وبمجرد دخول الكاتب لمحنا الشيخ قادما إلينا من مكتبه ، مرحبا بنا أيما ترحاب ، وأذن لنا بالجلوس ، وأحاطنا بحفاوة بالغة، وراح يسأل عن الإخوان في المسيلة بأسمائهم، وسأل صديقي عن علاقة اسمه ببعض الزوايا لعلاقة الاسم بذلك ، والشيخ لن يفوت الفرصة في السؤال ، إنه يهتم بكل تفاصيل الحياة، وسوف لن ينسى هذا الأخ صدق الاهتمام الخاص من الشيخ، ثم جاء دوري لأسمعه القصيدة فتهلل وجهه مبتسما، ثم تناولت بعض

المعاني العميقة التي تحرك أشجان الشيخ ، ليعيش وضعا خاصا، وقد صرت على علم بالذي يبكيه، وما الأشياء التي تؤثر فيه، وبمجرد أن أنهيت راح يسوق جملة من مفردات الثناء والشكر ، وغمرني بشيء من الحفاوة النادرة ، والمقام الرفيع الذي لم أكن أحضى به عند غيره من الناس، ثم طلب من الأخ "سليمان" الكاتب الخاص أن يصحبني إلى نادي الإعلام قصد تسجيل القصيدة ثم بثها عبر الأنترنت فقلت للشيخ : إن فيها كلاما يكاد يكون خاصا فلم يتردد أن يقول :وليكن، دعه كما هو، وقل ماتشاء، وليفعلوا مابدا لهم، وبأسلوبه الخاص قال: "ايدير عشرة ويقرص " وأذكر أنني عندما وصلت إلى هذا البيت الذي قلت فيه:

أنتِ الكبيرةُ فوق الحزن نرفعها*** وسامحيهم فهم في الحكم غلمان

فقال الشيخ مصوبا : قل ذكران،فليس كل ذكر رجلا، فكان التصويب رائعا من حيث المعنى كما أنه موافق للوزن والقافية، مما أضفى على القصيدة شيئا جميلا.

وما يجب أن يذكر أن هذه المناسبة كانت فرصة لأتعرف على هذا الأخ الذي تصرف معنا هذا التصرف فصار صديقا من بعد .

تتغير بعض أبيات القصيدة فيكتشفها:

حدث ذلك في مدينة "سطيف" حين أسمعته قصيدة كنت ألقيتها في تجمع مماثل "بالمسيلة"، فاجتهدت في تغيير بعض الأبيات تماشيا مع كل جديد، وتكيفا مع تغير المكان والظرف، وظننت المسألة تمر بسلام، لكنني اندهشت ونحن في الفندق حين ابتدرني الشيخ قائلا : غيرت بيتين في القصيدة، فقلت نعم ، واستغربت لهذا الفعل النادر المتميز من الشيخ، ولم تكن دهشتي للسؤال بقدر ما اندهشت

لدرجة اهتمام الشيخ بكل مايقال، فالشيخ يصوب، ويصحح ويتفاعل مع القصيدة معنى ومبنى، وقل مثل هذا مع الأنشودة ، ومثل هذا مع كل جميل .

الجامعة الصيفية "بومرداس"

<u>القصيدة التي أوصلني بها الشيخ إلى بغداد:</u>

الجامعة الصيفية بمدينة "بومرداس" فرصة للتلاقي وتجديد أواصر الأخوة، وقد كانت الجامعة سنة 2000م حافلة بحضور شخصيات بارزة منها 'عبد السلام بلعيد 'رئيس حكومة سابق ،'مولود حمروش' رئيس حكومة سابق، 'بن بيتور' رئيس حكومة سابق ، السيد علي بن محمد وزير التربية الأسبق ، الدكتور عثمان سعدي وآخرون، ومن أهم ما قرأت على مسامع الشيخ في هذه المناسبة قصيدة الخفافيش يعودون هذا المساء ، وقرأتها أثناء مداخلة الأستاذ "عثمان سعدي" سفير سابق ورئيس الجمعية الوطنية للدفاع عن اللغة العربية، وقد سر الشيخ بها أيما سرور، أما القصيدة الثانية فقد كانت في مداخلة الأستاذ "علي بن محم"د بعنوان "أطواق من حرير" وهنا جمع الشيخ بين الضحك والبكاء معا ، وما نسي أبدا أن يقوم ليسلم علي مظهرا إعجابه بالقصيدة وتفاعله معها، فقد كانت نارية جدا، وكنت أن ألقيتها في قاعة ابن خلدون ، أثناء نشاط قامت به التنسيقية الوطنية للمدرسة الأصيلة تحت إشراف الوزير الأسبق الدكتور علي بن محمد، فأحدثت دويا هائلا مما دفع الأخ الفاضل الصحفي 'سعيد بوعقبة' أن يفتكها مني ليتولى نشرها في جريدة الشروق ، وعلى هامش الجامعة الصيفية التي أقامتها الحركة بمدينة بومرداس، تم تنظيم يوم تضامني مع أطفال العراق ، حضره معالي سفير دولة العراق، ومعالي سفير دولة فلسطين الشاهدة كما يحب الشيخ أن يسميها، وإطارات سامية أخرى ، وكان الحضور حاشدا، كنت أحد المتدخلين بقصيدة شعرية حول هذا الموضوع بالذات ، وعندما اعتليت المنبر لم أعد ألمح إلا عيني الشيخ تذرفان الدموع، وأذكر أيضا أن هنالك آخرين ممن بكوا لما يصيب أطفال

العـراق حـين سردت توجعـاتهم، وصراخهـم واسـتغاثتهم بالعـالم الـذي لا يسـمع، وانصرفـت إلى مكـاني، استمعنا كلمة الأستاذ 'عبد العزيز بلخادم' الذي صار وزيرا للخارجية بعد هذه المناسبة بأقل مـن شـهر، ثم استمعنا كلمة الشيخ التي كانت آخر فقرات البرنامج، وعند ختام المهرجان لم ألبـث أن جـاءني أحـد المنظمين يدعوني إلى الدخول إلى القاعة الشرفية حيث يجتمع الضيوف ، فسـلمت عـلى الحضـور، وأذكـر أن السفير العراقي قام لي من مكانه ، كما فعل ذلك الأستاذ 'عبد العزيز بلخادم'، أما الشيخ فقبلة حـارة في جبينه تنسي أتعاب الحياة، ثم هامسني مدير الدائرة الثقافية بالسفارة الأستاذ 'أسعد مـراد 'وقـال : إن معالي السفير يعرض عليك الذهاب إلى بغداد للمشـاركة في فعاليـات مهرجـان مربـد الشـعري ، فلـم أتردد عن قبول الدعوة ،بل كدت لا أصدق واعتقدت المسألة مجرد مجاملة، لكن الإخوة العراقيين أكدوا ذلك عن طريق هاتف البيت فقد أرسل الأخ أسعد في طلبي عدة مرات ولم يجـدني، وفعـل ذلـك إلى أن كلمني، وزرتهم في السفارة فكان الاستقبال رائعا جدا، فقلت في نفسي هذا من فضل ربي، ثم مـن فضـل هذه الحركة المباركة بشيخها الميمون، وكانت الرحلة ، وكان الاكتشاف والمتعة معـا، أمـا الشـيخ الكـريم فله كل الفضل في تسهيل عملية سفري وتقديم المساعدة اللازمة لذلك ،رغـم أن الـبعض كـان ممتعضـا وثقلت عليهم تكاليف السفر ، لكن صاحب القلب الكبير كان يعـرف مايفعـل، ويـدرك تمامـا رغبتـي في الذهاب فلم يتأخر عن تلبية النداء الذي أرسلته له، وفي الجامعة الصيفية أيضا فوجئت بـالأخ الفاضـل "لطيفي " وهو يدعوني أن أركب سيارة الشيخ لأصحبه إلى مدينة "كاب جنات" ببومرداس فهنـاك حفـل استقبال ، ومأدبة غداء ، التقى فيها الشيخ ببعض الفنانين، ولاحظوا كيف كان للشيخ حضور عنـد هـذه الفئة، وطبيعة الحضور تفرض أن يصاحبه على الأقـل شـاعر، فكنـت الشـاعر المحظـوظ الـذي اصـطحبه الشيخ معه فألقيت قصيدة ارتجلتها حول المدينة وأهلها فسر الشـيخ كثـيرا لـذلك ودعـا لي بـالتوفيق والنجاح، لقد كان يفهمنا بمجرد الإشارة، وتلك هي شيمة القادة وكبار النفوس فقط.

قاعة حرشة حسان تحتضن مهرجانا حول القضية الفلسطينية:

استشهاد الطفل الشهيد "محمد الدرة" وعمليات التصعيد الصهيوني في الأراضي الفلسطينية المحتلة، ومع تصاعد العمليات الاستشهادية في فلسطين بعد التفاف الشعب حول فصائل المقاومة، كل ذلك كان يجد تضامنا شعبيا منقطع النظير ، فكانت الحركة على موعد كالعادة مع التاريخ لتسجل موقفها مما يجري فدعت إلى هذا التجمع بالرغم من القوانين التي تقضي بمنع التظاهر والتجمهر، فالجزائر تعيش وضعا أمنيا خاص وظروفا صعبة ، لكن الحركة لا تبالي حين يتعلق الأمر بفلسطين ، وكان الشيخ لا يناقش في هذه القضية بالذات، وحشدت الحركة الجماهير التي تقاطرت من كل مكان، وكانت قصيدة حول استشهاد محمد الدرة، أعجب بها الشيخ أيما إعجاب، وكنت على يقين هذه المرة من أن دموع الشيخ لن تتوقف، وذلك الذي حصل فعلا، وقد حضر التجمع وفد وزاري هام ، وكذا بعض الدبلوماسيين العرب ، وسفير دولة فلسطين.

* القصيدة منشورة بديوان "ملاحم من شموع القدس" طبعة دار الخلدونية.

بمناسبة مرور عشرة سنوات من تأسيس الحركة:

لم يسعفني الحظ أن أحضر هذا المهرجان الكبير، فقد حالت بيني وبينه الظروف، وجاءتني الأصداء أنه كان مهرجانا ضخما جدا أقامته الحركة بمسرح الهواء الطلق بالأوراسي، واستمر حتى صلاة الفجر، ولست أدري كم مضى على ذلك حين التقيت الشيخ في مكتبه، وبمجرد ما لمحني قال : افتقدناك في المهرجان، كانت الليلة ليلتك.

وهنا لم يكن علي أن أبرر الغياب بقدر ما أهمني حضور القصيدة في ذهن الشيخ وحبه للأدب والفن، ورحت ألملم بعض الكلمات من قصيدة أعددتها بالمناسبة بعنوان عيد ميلاد وأسمعته جزء منها فسر الشيخ لذلك كثيرا.

مهرجان الأقصى بمسرح الهواء الطلق وآخر تجمع يجمعني بالشيخ:

دعت الحركة إلى تجمع حاشد بمسرح الهواء الطلق بالعاصمة بعد سلسلة التجمعات التي عقدتها بالولايات مخترقة بذلك جدار الصمت المضروب على القضية الفلسطينية، رغم كل العراقيل الإدارية وعمليات القمع، وقد بادرت الحركة باختراق قانون منع المسيرات، فالجماهير لم تطق صبرا، مما عرض مناضلي الحركة إلى عمليات التهديد والضرب من قبل الشرطة، وكلما دعت الحركة إلى تجمع داخل القاعة توقعت أن يكون كبيرا سرعان ما يتحول مسيرة حاشدة، وحالة الطوارئ المزعومة تمنع ذلك، فتقوم قوات الأمن بحشد الحشود حول التجمعات الضخمة للحركة حتى ولو كانت داخل القاعات، تحسبا لما سيحدث، لأنها صارت تعرف كيف تكون النهاية، فعملية انصراف المناضلين إلى بيوتهم ومعهم أطفالهم وهتافاتهم تعتبر مسيرة غير مرخصة، وقد توجت كل هذه المحاولات بمهرجان ضخم بهذا المكان الذي اتسع لأكثر من عشرة آلاف مشارك قدموا من شتى الولايات رغم الضغوط الأمنية المشددة، والقمع الممارس ضد المناضلين في كل مكان، وكان علي أن أسافر إلى العاصمة ، وحملت معي القصيدة، وحين جلست أنتظر الدور كان الأستاذ المشرف على المهرجان والمكلف بتنشيطه يأتيني بين الحين والحين ليقول لي: إننا في انتظار قصيدتك، ربما هي التي ستحرك هذا الزخم من الجماهير، وكنا قبالة وزارة الدفاع الوطني، وكأني بالحضور الكريم لا يزال في حاجة إلى تحريك، وأذكر أن الشيخ الفاضل كان لابسا برنوسا أبيض وعلى صدره خمار فلسطين، أذكر أنني حين اعتليت المنصة ابتسم الشيخ، واستقبلني الجمهور بالهتاف والتصفيق، وحين شرعت في تلاوة القصيدة راح الشيخ يبكي، وكنت أنظر إليه، واستمر كذلك إلى أن طلب مني المنشط أن أختصر غير أن الشيخ أعطاني الإشارة بيده طالبا مني مواصلة القصيدة، كما طلب من المنشط أن يتركني أكمل، وحين نزلت وقف الشيخ يستقبلنيومن جميل الصدف أن يحضر التجمع الشيخ "عبد الرحمن شيبان" رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وكان من عادتي أن أحظى في كل مناسبة بتقبيل الشيخ عند الانتهاء من القصيدة ، أما حين يقوم الشيخ

فإن الحضور كله يشارك بهتافه وتصفيقه ، فمن من الناس يفعل هذا مع شاعر ، إن لم يكن مرهفا حساسا؟

زيارة إلى الشيخ في بيته عند رجوعه من الأردن وهو على فراش المرض الذي كان سبب رحيله عنا:

لئن كنت أنسى فلن أنسى أبدا حفاوة الاستقبال التي حضي بها وفد ولاية "المسيلة" من طرف الشيخ رغم ما يعانيه من آلام ، تلك صورة ستبقى مرتسمة في الخيال ما حييت.

لقد تعب الشيخ كثيرا في حياته، وواجه مالم يواجهه أحد في هذا الدرب الصعب، ولعلنا كنا أحد أسباب تعب الشيخ الفاضل، كان يدرك تماما ما الذي يحيط به من الداخل والخارج، غير أنه يكتم كل ذلك صابرا متجلدا يعفو عن الخصوم ، يتصدق بعرضه على الشامتين والحاسدين، وربما كان بعض المحيطين به ممن تسببوا في مضاعفة علله وأسقامه، وقد أبكوه أكثر ما مرة، وكان أحيانا يشير إليهم حتى لكأني أعرفهم فردا فردا، دون أن يسميهم.

لقد مرض الشيخ، ولم نكن نتوقع أن يتطلب ذلك المرض علاجا في الخارج، ومكث أياما طويلة بالعاصمة "عمان"، وأذكر أنه في غياب الشيخ يصبح المقر بلا طعم ولا رائحة ولا لون، فكيف والشيخ غائب في سفر وفوق ذلك مريض؟

وانتظرنا رجوعه، وعندما عاد قرر الإخوان في ولاية "المسيلة" زيارته إلى البيت وكنت محظوظا جدا أن تشملني قدرة الله لأحظى بزيارته وأكون ضمن هذا الوفد، الذي يعتبر هاما، ضم رؤساء البلديات الأربعة، وخيرة إطارات الحركة من أصحاب الفضل علينا، حين وصلنا إلى البيت استقبلنا الشيخ استقبالا حارا،واحتضناه احتضانا دافئا، وكان باديا عليه أثر التعب غير أن الابتسامة لم تكن تفارق محياه، كنا لا نود أن نطيل المكث عنده، غير أن عين الشيخ كانت ترمقني ، وكأنه ينتظر مني شيئا ، فأخرجت القصيدة التي نظمتها بسبب المرض، ورحت أنقل فيها مشاهد أبكت الشيخ ، لكنني ولأول مرة أشعر

بارتكاب خطإ في حق رجل مريض ، فما كان علي أن أثير أشجانه، أو أجدد أحزانه، لكننا فزنا ببركة دعائه، واللقاء به في جو مشحون بالإيمان.

آخر الكلمات :

حين بدأ الغزو على العراق ، واشتدت المحنة على الفلسطينيين، آثرت أن أعبر عن ذلك بتسجيل شريط سمعي بعدما رأيت سبل النشر ضعيفة لم تستطع إيصال ما أريد، وكنت أتمنى أن يكون الشيخ أول من تهدى إليه أول نسخة من الشريط الذي كان بعنوان: "مآذن بغداد ، قباب فلسطين"

وشاءت الأقدار أن يخرج الشريط والشيخ خارج البلاد يتعاطى العلاج في باريس، واحترت كيف أوصل إليه هذا الإنتاج ، ومن غريب ما سمعت أن صديقا قام بمهاتفة الشيخ وعن طريق الهاتف راح يبث بعض أبيات الشريط من داخل السيارة والشيخ يصغي .

لكنني حرصت على إرسال الشريط بنفسي عن طريق أحد الإخوة الأفاضل بمجرد أن قال لي: إنه سيلتقي الشيخ بفرنسا.

وبعد :

هل يمكن أن نقول إننا وفينا هذا الرجل حقه؟ أو أننا أنصفناه في هذا الجانب من جوانب الحياة؟

فنقول: كلا، لأن مدح الرجال لا يستطيعه المقصرون، ومجرد محاولة ذكر خصال الرجال إنقاص لقدرهم، لكن مع ذلك حاولنا أن نسجل إشارات فقط لعلها تكون سببا في إن نجمع حول هذا الرجل معالم النجاح، فإذا كان الكلام متعلقا بحياته الفنية، فالرجل كان ذواقا، يقدر الفن وأهله، يفتتح كلامه

في مداخلاته فيرحب بالضيوف ، بادئا بالعلماء والوزراء، والسفراء، ورجال الإعلام، ولا ينسى أن يرحب بالشعراء والأدباء والمثقفين والمبدعين.

ولم يعجب بالشعر فحسب، ولكنه تجاوز حدود ذلك إلى البحث عن المسرح فقد كان يشير أكثر من مرة إلى هذا الجانب الهام، كما تساءل عن ضرورة إيجاد هيكل تتجمع فيه الطاقات المبدعة الخلاقة، وسعى إلى البحث عن العلاقات مع الهيئات والجمعيات الفنية والثقافية لإحداث نقلة نوعية ، وإبراز معالم الفن الإسلامي الهادف، داخل الوطن وخارجه، وقد قال لي ذلك صراحة حين زرته في مكتبه ذات يوم، لقد قال: إن عليكم أن ترتبطوا بغيركم ممن هم في الخارج وخاصة المشرق العربي ليحدث الاحتكاك ، وتنضج التجربة، كان يرى أن الكلمة الصادقة تنفذ إلى القلوب بسهولة، وأن ما يفعله الفن الأصيل تعجز عن فعله المواعظ والخطب والدروس، وأن الدعوة الإسلامية الحديثة ينبغي أن تساير العصر ببدائلها في كل شيء، وأن تملأ الفراغ الحاصل في هذا الجانب المهم من جوانب الحياة ،فكل فراغ عجزت الدعوة عن سده بالقيم والأخلاق ملأه الآخرون بالشر والفساد.

يقول هذا مع ما ينتظره من أعمال تنوء عن حملها الجبال الراسيات، فما الذي ننقله عنه في المجال السياسي؟ وماذا عن الدعوة الفيحاء التي نذر لها كل حياته؟ وماذا عن صولاته وجولاته داخل البلاد وخارجها؟واجتهاداته الفكرية والسياسية وقد كان سابقا لزمانه، فالرجل الذي لم يعش لنفسه لحظة على المنصفين أن يذكروا خيره عليهم سنين وأعواما، وإنني لأعجب من تلاميذ صغار صاروا يؤرخون لأنفسهم عن أنفسهم ، ويحررون عن ذواتهم مقالات مطولة غارقة في الصفاقة ، منقولة من كتب غيرهم، مكرسة للتكرار الممل، ثم لا نجد لهذا المتواضع من ينصفه فقط ويدلي عنه بشهادة حق ولا يكتمها، ويعطي الرجل بعض حقه حتى لا نقول إننا أعطيناه حقه كله ، ومن المفارقات أنني أكتب له هذه الكلمات، وأمامي مشهد حزين رسمته ريشة الحياة ، لوحة قالت :كل الذين أحبهم ظُلموا في الحياة فتراني أندفع بلا تردد أمسح عنهم الغبار في جزئية من جزئيات حياتهم، وقد صدق من قال في اغتيال

الشيخ الذبيح محمد بوسليماني : (إن لم تنصفه عدالة الأرض ، فستنصفه عدالة السماء)، وتلكم هي العبارة التي تتأكد اليوم في حق هذا الرجل.

إنني لم أكن محظوظا أن أنال شرف معايشة الشيخ كثيرا،ولا أدعي أنني على صلة كبيرة به، غير أنني أنقل للتاريخ أن المحطات التي جمعتني به منها ماذكرت ومنها مالم أذكر لم يقل لي الشيخ كلمة واحدة نابية، أو يدلني إلى خطإ ، أو نهاني عن فعل شيء أو تركه، ولا طلب مني أن يطلع على القصيدة قبل بدء أي احتفال كما يفعل البعض تحسبا لتحاشي بعض الكلام، من قبيل المراقبة وعرض النصوص على المقص، وربما كان له حق ذلك نظرا لنوعية الحضور الذين كانوا يلبون دعوته، فيحضر كبار المسؤولين في البلد من رجال الدولة ، وإنما عاملني بحرية مطلقة، ووفر لي فضاء مريحا، وعضد المواقف كلها، وكثيرا ما كان يطيل الثناء على مايسمع سواء من القصيدة، أو من الضيوف الذين يحضرون فيقولون كلاما يعجب الشيخ فلا يتردد أثناء خطابه أن يشير إلى تلك الوقفات مشيدا بأصحابها، حتى لو كانوا من معارضيه ومناوئيه، بالرغم من أن خطابه ينتظره الحضور بشوق كبير لأنه في الغالب يكون آخر ما يقال، ومع ذلك فالشيخ بكل تواضع يجعل للآخرين حيزا مقبولا في خطاباته،مبتعدا عن كلمة "أنا" التي يرددها الكثير من المراهقين في الساحة بل كان متواضعا جدا ينسى نفسه لينزل الناس منازلهم في أدب جم وخلق رفيع .

لم أعايش الشيخ كثيرا ولكنني في لحظة أحسست أنه يستحق منا الوفاء والعطاء بل والفداء أيضا ، لأنه رجل يُحَب ، وكسب قلوب الناس في زماننا عملة نادرة جدا، أما العثور على معاني الرجولة الحقة فتلك أمنية عمرية لم تتحقق بعد، ولو طلب مني أن أختار من يستحقها في هذا الزمان لقلت بكل صدق ودون أي تردد إنه الشيخ الفاضل محفوظ نحناح حفظه الله ورعاه وشفاه، لم يتعال على الخطباء وكان أفصحهم لسانا، ولا على الشعراء وكان أبلغهم بيانا، ولا على السياسيين وكان أقدرهم حجة، ولا على الدعاة وكان أرسخهم قدما، ليس في لسانه لكن ولا لحن ، وليس في قلبه حسد أو غل ، لا يتفوه بكلمة "أنا" حتى في المواطن التي كنا نرى أنه يجب أن يقولها فيها، فحكمته غلبت طيشنا، وصبره غلب

تسرعنا، شملنا بحلمه ، وأدبنا بعلمه، وضمنا تحت جناحه الدافئ يوم عصفت الـريح، وقصـفت الرعـود وتعالت أمواج الفتن، وهبت الأعاصير، وتصاعدت رائحة الفرقة ، ورماح الجفـاء، وصـيحات الباطـل،وكثر اللغط، وارتفع الضجيج، ولوح بيده للسائرين خلفه وسط غبار معركة الثبات عـلى الحـق قـائلا في يقـين وبابتسامة الموقن من النصر:هذا هو الطريق، وظنناه بعيدا لكننا تأكدنا أنه الموصـل إلى شـاطئ النجـاة، فطهرت أيدينا من سفك الدماء، وألسنتنا من شتم الأعـراض، وقـذف المـؤمنين والمؤمنـات، وقلوبنـا مـن الطمع والشرك والرياء، وأراحنا من عنـاء الطريـق ، فجاءتنـا الـدنيا صـاغرة ، وعرفنـا النـاس بـالحق ولم يعرفوا الحق بنا، وحققنا باللين واللطف مالم يحققه غيرنـا بالشـدة، وحزنـا الصـدارة في القلـوب قبـل أن نحوز المكاسب والمغريات، وتلكم هي ثمار مدرسة الوسـطية والاعتـدال، المبنيـة عـلى الفهـم والإخـلاص والحب والأخوة والتجرد والطاعة والعمل والبذل والتضـحية والجهـاد، وراح يغـرس فينـا حـب بعضـنا ، وترك التزاحم المذموم على الدنيا الفانية، كان يحب المناضـلين البسـطاء ، ويثنـي علـيهم، ويـدنيهم مـن مجلسه، ويحذر من التلاعب بعرقهم وجهدهم، حتى شعر الناس جميعا أن للرجل فضـلا علـيهم، فصـار أب الجميع، وأخ الجميع، وصديق الجميع، وفوق كل هذا عاش يواجه الأحزان بابتسامة وحلم، وصـفح وأناة .((تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين.))

ملحـــــــــق:

وفي الأخير لا بد أن أقول للقارئ شيئا في غاية من التركيز، هو أن هذه الكلمات كتبت والشيخ على قيد الحياة ، وحين هممت بعرضها عليه كان رحمه الله في آخر أيام عمره ، وقد طلبت من كثيرين أن أزوره لكن الأقدار وحدها هي التي حالت بيني وبين ما أريد ، ولعل الله تعالى جعل ذلك سببا في ازدياد الشوق ، فالحرمان من الشيء أحيانا يولد إبداعا، ولا أزال إلى حد الساعة هذه أتعامل مع هذا الشيخ كما لو أنه لا يزال على قيد الحياة ، بالرغم من أنني متأكد من موته ورحيله عنا إلى الأبد، وليس هذا إحساسي وحدي بل هو إحساس الكثير من الذين أحبوه.

وإلى غاية الساعة التي نحن فيها لم نكتب عن الشيخ شيئا، مهما ادعينا أننا نحبه، وما كتاباتنا حول هذا الشيخ إلا كما لعب الأطفال حين يسلون أنفسهم بخربشات على ورق لم يتعلموا بعد جذب القلم عليه، وما كتاباتنا عن الشيخ إلا محاولات ضعيفة لتلميذ ضعيف ، لم يكن يحسن التلقي من معلم ماهر حتى مات ، وعندما قيل مات اكتشفنا مهارته، وتغلبت علينا عواطفنا في حين كان يستحق أن ينصف حيا، فكل شيء بعد وفاة الشيخ ماهو إلا وراثة بطيئة الخطى لمدرسته ونهجه، وجهل بعنوانه الكبير ، فهل نظهر ودنا مقابل أن يقول الناس إننا أوفياء لقميص نحناح رحمة الله عليه.

نعم ربما كنت شاعرا رمت به بحور شعره في هذا الحب الذي ظنناه يترعرع بين أحضان الشيخ الدافئة بهدوء، لكنه سرعان ما اشتعل حين رحل الشيخ ونحن في أمس الحاجة إلى حنوه وابتسامته وأريحيته وكل شيء فيه، وتلك هي علامات الحب الصادق ، والشعراء قد لا يكون كلامهم مهما عند بعض أولئك الذين لا يصمدون أمام الحرف ، ولا يحسنون فنا أبدع فيه الشيخ الراحل وحده، فكان سابقا لزمانه، ولو قيل لي أن أختار بعض صفات القائد لسألت أولا عن ذوقه، وعن بكائه وانهزامه أمام القصائد، وجعلت ذلك شرطا من شروط القيادة، والذوق يكتشف ولا يمكن أن يوارى.

كما أن الذوق موهبة يمنحها الخالق من يشاء ، ومثله مثل الحب والرقة والحنان، وكأن الله تعالى أراد أن يصنع الشيخ على عينه فأعطاه من كل شيء جميل قدرا.

إن صدقنا هو عربون وفائنا للراحلين الذين عاهدناهم على أشياء كثيرة، منها ما سبقنا البوح به ومنها مايزال سرا دفينا بين جوانحنا قد تأتي لحظات البوح به.

أخي القارئ الكريم:

في هذا الجزء اليسير القصير عرضت أمامك مجرد سطور رتبت حروفها محطات الالتقاء الأولى وهي قصة بعض القصائد التي سمعها الشيخ، وأحيانا طلبها الشيخ مرة أخرى بعدما سمعها، وأحيانا كان سببا في إدراجها ضمن النشاط المقرر، فأرجو من الإخوة خالص الدعاء لي ولهذا الشيخ الفاضل ولرفيق دربه في الثبات الشهيد الذبيح محمد بوسليماني، وجميع شهداء الحركة في العصر الحديث رحمة الله عليهم، طالبا من كل الإخوان أن يمدونا بنصحهم، وشهاداتهم، حتى نوفي بجزء يسير لكل هؤلاء ، ونحن في انتظار ما تشيرون به علينا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم محمد براح

الجِراح الـمُـربّـيـة

أحمد الراشد

في تحليل الظاهرة التربوية في الحياة الإنسانية : أن المنظر يُـربّي أكثر مـن القـول ، ويـترك آثـاراً نفسـية عميقة في المشاهدين أو في الذين يُعانون ، وهم رجال المشهد والمنظر وميدان العمليات ، لأن التفاعـل مباشر ، فيكون ضارباً في الدواخل. وهذا المعنى أدركـه الشـاعر الجزائـري الداعيـة الأسـتاذ محمـد بـرّاح فقال : لا شيء أفصح من بلاغة جُرحنا (1) فمنطق المنظر المأساوي بخاصة : نافذ أشد النفوذ ، وهو أبين من تأويل عائم ، ويمنع أن نثق بوعد مُخادع يؤذينا ويُسرع إلى كـلام مجـاني يـزعم فيـه الإخـاء ولـزوم التعايش ، بل جُرحنا الغائر ، وأجسادنا المثقوبة ، ورؤوسـنا المقطوعـة : أتـت بشـروح يعجـز عـن مثلهـا الجاحظ والزمخشري لو أرادا الوصف الدقيق ، وجرح العراق أكثر نزيفاً مـن جُـرح الجزائـر ، فـتماثلا في الفصاحة الصامتة التي تترك أثراً تربوياً من خلال شخوصها ظاهرة بـين النـاس. * ومـن ظـواهر الحيـاة : ازدحام مكوناتها ودقائقها ، وتراكم الأجزاء ، وحشد يتدافع بالمناكب في تنـافس شـديد ، ولـذلك يحتـاج أحداً يُرتبه ويُعيد له النظام ، وهي مهمة الـمُصلحين والقادة ، وذلك هو الذي لفت نظر محمد بـرّاح في الجزائر من سيرة النحناح فقال في رثائه : هذا الذي هذّب الدنيا ورَتّبها !! (2). ولا يكون من شرط عمل القائد في ذلك الاستيفاء ، لكنه يضرب المثال ويضع الهندسة والتصاميم ، ليقتفي المستوعب الذي يـؤذن له أن يفهم القصة. * ويزداد تأثير هذا القيادي الذي يُعيد ترتيب البيت إذا كان رجل تربية يجيد صنعة الرفق ، فإن الرجل التربوي له حنان ، ويُعلم الناس التفاؤل ، ويَصدق عليـه مـا وصـف بـه محمـد بـرّاح شيخه النحناح من أنه قد حوّل الآهات ألحاناً ، لأنه رَصَد في يومياته كيف أن رهطاً مـن شـباب الجزائـر جريحاً حزيناً أصابته الدهشة : فضمّه الشيخ والأناتُ صـاعدة حتـى اسـتحال بلمـس الشـيخِ فرحانـا(3) فطفق الرهط يعمل بجد ، ويستدرك ، وانتقـل إلى سـمت الإيجـاب بعـد إذ طرقتـه وسـاوس السـلبية ، وكادت تتلفه نزوة الثأر وردّ العنف بالعنف. * والقيادي المقتدر ، والصاعد الجسور ، والتربـوي المبـدع : من شأنهم تأسيس الثقة ، وبثّ التفاؤل ، ليكون الإقدام والاقتحام ، وهو الذي أدركـه محمـد بـرّاح مـن

صنعة محفوظ عندما سادت الأحزان ، فقال في رثائه مفتقداً المؤجِّجَ السائق نحو الطموح : من سوفَ يَقْدر ملء الفجر بعدكمُ بالأُمنيات إذا ما احتلّنا الضجرُ ؟ (4) وذلك هو وَجَل الصدمة الأولى ، فإنه ذهل عن عمق المنهجية التربوية التطويرية الدعوية التي التزمها ، فأتاحت مضاعفة الشعور بالمسؤولية لدى الوارث ، فأشاع البسمات ، رغم الصدمات ، وذلك هو الشأن المنهجي عند كل محنة ، يريدها المنافس أن تكبتنا ، فتتحول عندنا إلى منحة. * وكل جديد لم يتدرب على تداول مثله الدعاة : يوشك أن يقترن بخطأ ومحاولات فاشلة ، وتلك ظاهرة عامة في حياة أجيال المسلمين المعاصرة حين مارست السياسة ، أنها أتلفها الرهق والتجريب والسير غير المنهجي ، وأجمل الشاعر محمد برّاح وصف أحوالها فقال : إن الجماهير في إبحارها تعبَت تحتاج في لُجج الأمواجِ ربَّانا(5) فالمتاهة ولّدت المتاعب ، ولن تكون راحة إلا من خلال تصوّر واحد : أن يتولى القيادة السياسية إسلاميون فقهاء زُهّاد وعاة يُريدون وجه الله. وهذا هو الذي جعل الوعي الدعوي يُشير بوضوح إلى أن الحل الرئيس لمشكلة العالم الإسلامي بصورة عامة إنما يكمن في نزول قيادات ماهرة إلى الميدان ، تُربي مَن حولها وتدرّب جيلاً من القيادات الوسيطة الثانوية التي تساعدها وتحمل معها الأثقال وتتوزع المهام والواجبات ، وتعمل تحت ظلال فكر قيادي متناسق ، وفكر سياسي متجانس ، فتنشأ كتلة قيادية جماعية توفر الأمل بحصول استقرار وإنجاح خطة تنموية شاملة للبلد ، بل وبدء جولة جديدة للحضارة الإسلامية الإيمانية بعد إذ أنهكت الحضارات المادية الحياة الإنسانية. * ويتقوى الأمل بإمكان حصول هذا الطموح في أرض الواقع : أن هناك من أبناء الجيل الدعوي الصاعد الجديد من انفعل بالقضية الإسلامية ، وألهمته الجروح والأزمات أنواعاً من الإلهام ، حتى أصبح الآن جاهزاً لتوفير الإسناد القيادي التخصصي للخطط القيادية إذا مسحت على رأسه يد التدريب الإداري والإبداعي. وهو جيل رأى محمد برّاح جمهرته تملأ الساحة فأجاد وصفه : ¡ أشبالنا كَبُروا .. ويكبر شوكنا .. مَن كان يحبو .. صار لا يهوى الرقود .. إنا عرفنا كيف نُبدع .. كيف نصنعُ من جماجمنا الصعود .. برجالنا .. بنسائنا ... : يمضي الشهيد مع الشهيد ... عفنا المنابر والوفود .. فاحذروا .. أن تُغضبوا فينا الجراح .. ! (6) فالجراح علّمته وجوب ولوج طريق الإبداع

والصعود ، ولا يُريد أن يُغضبه جهول ، وإنما يُريد أن يحوز التربية التخصصية ليكون إيجابياً ويشرع في البناء .. * وهكذا فإن هذه المعاناة ، التي تتعامل مع دماء وأجساد معذبة ، وقتل ذريع يومي : كما أنها وصف محشور بالسوء ورديء المعاني والحقائق : فإنها أيضاً هي الخلفية التي تسند التطور الشخصي للداعية ، والتطور الجماعي ، لأن الألم يعصر القلب فيحركه نحو طلب الأمن والهدوء ، ويحفز العقل للتفتيش عن مخرج وحل ، ويؤدي ذلك إلى حوار مسترسل بين الأصحاب ، وتفتيش عن منطقٍ ودقة وصفٍ وأسباب تعليل ، وكل ذلك نضوج ، لكنه يحتاج ثمناً من الحُرقة واللذعات والصبر المر ، بيد أنه في النهاية يتحول إلى وعي وقناعات وتراكمات من الأجزاء التخطيطية التي قد يستوعبها عنصر آخر فيما بعد هو أذكى وأكثر دربة ، فيرتبها في منظومة وأنساقٍ نظريةٍ تـُشكّل منهجية عمل وتحرك لجيل كامل ذي امتداد عريض ، ويكون شاهداً ومثالاً واضحاً لكيفية ولادة المعاني ورسوخ جذورها ونموها وتحولها إلى فكر قيادي ، وهذا الذي يحدث اليوم في العراق من خلال محنة التنافس بعد الغزو الأمريكي ، مع وصف إيجابي آخر زائد على هذا المقدار ، يتجلى في أن التنافس الذي تمارسه العناصر الدعوية يحصل بموازاة أحاسيس جهادية عالية وشعور إباء وعزة ومكارم تمنحها الانتصارات على أقوى جيوش العالم ، ومناظر سقوط جنود المارينز قتلى في الطرقات ، أو احتراقهم في سيارات الهامفي ، وهذا الإثخان يرفع وتيرة المعنويات لمتداولي الفكر القيادي ، فيتضاعف التأثر ، ويتسارع النضوج ، وتطوى الأرض ويطوى الزمن للصاعدين الذين تدفعهم محركات التنافس. * الصاعد يُربي نفسَه إذا أومأنا له .. ! * لكن هذه المنحة القدرية الإيجابية التي تولد من رحم المعاناة والألم ليست هي إلا البداية والأرضية اللازمة للبذر والإنماء ، ولا يمكن أن يزعم أحد أن فيها الكفاية ، ولابد من ممارسة تطوير متعمد للعناصر وفق منهجية متكاملة تعتني برواية كل التجريب الناجح ليُقتدى به ، والتجريب الفاشل لقطع استرساله ، واستخدام العلوم الإدارية ووسائل صناعة الرؤى الاستراتيجية ، ثم انتظار الزمن لإنضاج المتدربين ، ولا يكون ذلك من خلال تربية تلقينية فقط ، بل من خلالها وعبر حلقات متواصلة من الحوار الحر الذي يُثير كوامن العقول وعلى سُنة الصراحة والنقد الإيجابي البنّاء الذي لا يتحرج من تسمية الخطأ بأنه خطأ

ولا يجد ضرورة لاستعمال لغة دبلوماسية في ذلك ، ولكن مع الأدب والاحترام ، وبلا تجريح واتهام ، ولعل عشر جلسات من الحوار الأُصولي تستغرق الواحدة ثلاث ساعات : أبعد أثراً في التربية والإنضاج من خمسين محاضرة تلقينية يبقى فيها المتدرب صامتاً كأنه خزان يتم ملؤه. * ومن الأهمية بمكان للقادة وأئمة التدريب أن يُدركوا أن عملية التوعية والإعداد للجمهرة الذكية المختارة لا ننتظرها فقط من محاضرة وحوار ورواية أسرار ، وإنما ذلك شطر منها ، والشطر الآخر المكافئ إنما ننتظره من المتدرب نفسه ومحاولاته الذاتية ، ونقطة البداية في تحفيز استعداداته هو التكليف ، بأن يُقال له بأنه مُرشح لأن يكون إعلامياً أو تربوياً أو سياسياً أو إدارياً أو مُخططاً ، وبذلك نكون قد أطلقنا زناد تفجير الطاقة الكامنة فيه ، مع مراعاة رغبته وميوله الخاصة ، فيبدأ يُفكر ، وتصير له قضية ، ويُصبح مُرتبطاً بمحور تدور حوله رغباته وأحلامه وتطلعاته ، وتتبدل نفسه ويُصبح توّاقاً راغباً في التطور ، مُهتماً بالإنتاج ، وتتحقق في داخله نقلة ملموسة أساسها نفسي- معنوي ودربها عقلي فكري ، فيمر بمرحلة اصطياد الخواطر ، كأنه حفيد لابن الجوزي ، ويحرص على استلال كل خبر يقرؤه في جريدة أو مجلة يتعلق باختصاصه ، حتى يتجمع له أرشيف مُصغر ، ويطفق يهتم بالبرامج الجادة في الفضائيات ، ويرصد مالاً لشراء الكتب التخصصية ، ويستعير المراجع ، وأهم من ذلك في الحياة المتطورة المعاصرة أنه يشرع في رصد مواقع الانترنيت ، ويتقاسم مع أقرانه المماثلين له في تخصصه واجب الإطلاع عليها ، وقد أخبرني الثقة بأنه وجد أكثر من عشرة آلاف موقع باللغة الإنكليزية لعلم الإدارة والتخطيط الاستراتيجي والمرحلي ، وهذا رقم يشير إلى مثله في السياسة والاقتصاد وفروع التخصص الأخرى ، فلو أن مركز التدريب استحسن أفضل مائة موقع منها ووزع على كل متدرب واجب المتابعة لواحد منها أو اثنين ، مع ترتيب وسيلة لتبادل الجديد المعثور عليه من كل متابع لأصحابه : فإن المحصول العلمي في الباب المرصود يكون ضخماً جداً ومتجدداً بحيث يرتفع مستوى الجميع ، ولو أن المركز التدريبي ألزم كل متدرب بموضوع جزئي داخل التخصص العام يكتب فيه تقريراً أساسياً ويظل يطوره ويضيف إليه كل شهر من خلال حصيلة المتابعة : فإن مجموعة كبيرة من التقارير ستنضج في آن واحد ، بعد سنة أو

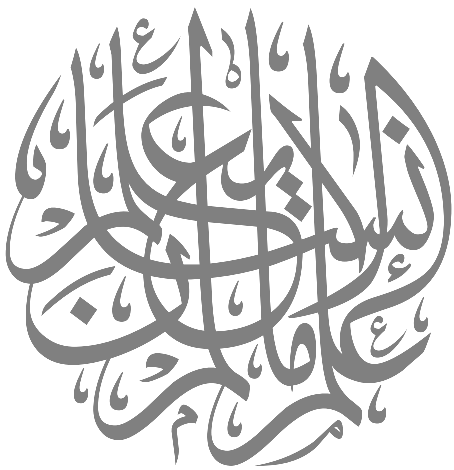
سنتين ، واجتماعها تتكون به موسوعة كاملة في كل تخصص تكون هي أساس التفقيه للجيل الثاني اللاحق ، وبعد عدة سنوات يتم إنجاز عدة موسوعات متكاملة ، مع خوارط وجداول وإحصاء ولوحات عرض تعليمية تفهيمية يمكن استخدامها من قبل عدد من المحاضرين لإشاعة حقائق تخصص معيّن بين جميع الدعاة والداعيات ، فينتج من ذلك وعي مُكثّف وتنتقل قضية التخصص من كونها قضية رهط صغير نذر نفسه للمتابعة والاجتهاد والاستنباط إلى قضية جمهور إسلامي واسع العدد يستوعب الدروس ، فتكون نقلة استراتيجية ترجيحية في ميدان تطوير التنافسية الشاملة ، وكل ذلك من بركات النصف الذاتي الشخصي من برامج التطوير ، ويكون التراكم الإنتاجي بالغ الأثر عند حصول التقادم. * الـمُحفّزات البيئية أُستاذ ثانٍ .. ! * لكن الحفاظ على البيئة هو ركن ضمان هذا التأثير ، وأهم معاني البيئة هنا : انطلاق العملية التطويرية من مؤسسة تكون مثابة دائمة تتيح التعامل مع منهج لا مع أستاذ وشيخ فقط ، وهذه المؤسسية ضرورية لبذر معنى وجود حصة لكل منتسب في الملك ، وسهم وشراكة ، وعبر هذا الشعور يتضاعف الحرص بدافع التوافق مع الفطرة ، ثم وجود الأقران المتماثلين هو المدلول الثاني للبيئة ، وبه يكون تنافس في الخير ، وشبه رياء هو إلى الحلال أقرب وإلى الإباحة أنسب ، أشار إلى مثله الغزالي في إحياء علوم الدين وجعله من أسباب عمران العلوم ، وبين الأقران يرتفع التكلّف ، وتشتغل السجية وتؤدي دوراً إيجابياً في تبادل الرأي وتحديات الجدل المنطقي أثناء المساجلات التي ينتصر خلالها كل مشارك لرأيه ويحاول إثبات صوابه عبر أسباب وذكر تجارب وتذكير بتاريخ فيه شواهد ، ولعل توفر المكتبة والمراجع والأرشيف وبنك المعلومات وأجهزة الكمبيوتر والعَرض والتسهيلات المختبرية والهندسية تُشكل جانباً مهماً في تكميل معنى البيئة الملائمة المعينة على التطور ، وليس آخر معانيها : توفر جانب الجمال والخضرة والمقاييس المعمارية ووسائل الراحة من تبريد وتدفئة وجلوس مُريح ، ولما وفد الشاعر البدوي علي بن الجهم على الخليفة المأمون وشرع يمدحه : بدأ قصيدته بقوله خليفة كالكلب في الوفاء ، فثار عليه الحاجب والوزير والخدم يسكتونه ، وذهلوا عن أنه بدوي ، هذا مدى تشبيهاته التي توجهها انطباعاته البيئية ، فسارع المأمون إلى زجرهم ، وقال : بل

اسكنوه جانب القصر الخلافي على دجلة شهراً ثم اجلبوه وليعرض بضاعته ، فرجع إليه بعد شهر يتغزل ويقول في ديباجة قصيدته : عيون المها بين الرُصافة والجسرِ سَلَبْنَ الهوى من حيث ندري ولا ندري فأذعن الجميع لإبداعه ، وأيقنوا أن البيئة لها أثر ومقال وحق وقيادة للعاطفة والعقل معاً ، وهي مصفاة لغوية للشاعر والناثر ، بل هي مختبر جمالي يمنح أعذب الأساليب وأرق الألفاظ ، وكذلك البيئة تكون في عالم التدريب والتطوير ، تضرب عمقاً فتحول الفوضوي إلى منهجي ، واليابس إلى طري ، والجافي إلى ذوقي ، واللجوج إلى دبلوماسي ، وتفتل أُذن القاسي حتى تعيده إلى الرفق ولين الجانب ، وكل ذلك من فن التربية ومنحة المحيط القياسي الموافق للمواصفات ، حتى أني تكلمت يوماً فذكرت أن الدراسات المعمارية والطبية توصي بأن يكون ارتفاع المنضدة ستاً وسبعين سنتيمتراً ، ليلائم معدل حجم الإنسان العادي وطوله : تعجّب الحاضرون ، إذ تلك حقيقة هندسية عالمية ، ولكن الشعوب في البلدان المتخلفة تجهل مثل ذلك ، بسبب نقص المنهجية ، وهو السبب الذي جعل الأستاذ التلمساني-رحمه الله- حريصاً على أن يُقلد دحية الكلبي الذي تمثّل جبريل-عليه السلام-في صورته ، فكان الأستاذ يخرج علينا في أجمل الثياب ، ويُعلّق على صدره وردة حمراء. * المنظومات التدريبية توجّه الأداء الذاتي *وهذا النمط من الإدراك لهذه المعطيات الإيجابية في المساعي التخصصية يوجب على مجموع الدعاة عملاً استدراكياً يُعوض عن تقصيرنا فيها خلال المرحلة الماضية ، أو حرماننا منها بسبب الظروف الصعبة والظلم والمنع الاستبدادي من حاكم أو حزب مسيطر أسندت له الدوائر العالمية المرتبط بها مهمة تجهيل الشعب وإبعاده عن كل وسيلة تنموية ، ولابد أن نتحدى المصاعب ونجالد ، على قاعدة : سدّد وقارب ، والدعوة الإسلامية المعاصرة بحاجة إلى إثراء في الرؤى ، وتوسيع مواردها وتنويع أساليبها ووسائلها ، وإسناد هذه المهمة إلى مراكز بحثية تصف الواقع وتحصي ، وتطلع على آخر الفنون في التخطيط ، وتحاول الاقتباس والتطبيق ، مع اعتبار الخصوصية الإيمانية الشرعية ، ثم الانتقال إلى التدريب من خلال مؤسسات محلية تتبادل الخبرة والمدربين مع مؤسسات مثيلة عديدة في الخارج ، وربما مع أخرى غربية وشرقية ، ثم إدامة التواصل مع المتخرجين من خلال دورات تنشيطية ، ومجلة ،

وتقارير ، وسلسلة كتب تخصصية ، وترجمات ، وندوات ، والتعامـل معهـم كأسـاتذة في موضـوع جـزئي محدود أو أكثر يلقون فيه محاضرات لجيل لاحـق ، وإذا أضـيفت إلى كـل ذلـك متابعـة وتقـويم لـلأداء واختبارات استيعاب وجلسات تشاورية لبحث مواضيع مهمة وإصدار توصيات بعدها : فإن وتيرة الجـد ربما تستمر ، ويكون المختص أحد الأمناء الذين يكفلون حياة موضـوع تخصصـه ، وحضـور معنـاه عنـد الشدائد والمنعطفات ، ويتوفر ضمان مراعاة مذاهبه عند البحث ، والله الضامن ، وتحصل حالـة بـِشارة ونـِذارة تصدع بمدلولاته ، وكأنها جزء من التعبد بالأمر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر ، الـذي هـو شـأن المؤمنين. * والمظنون الذي يترجح بالدلائل والقرائن والتجربة : أن كل الشباب الإسلامي الموقن بـالمفهوم الدعوي : يصلح أن يُرشَّح لهذه الخدمة التخصصية والمراتب القيادية إذا كان عنصر الذكاء متـوفراً ، مـع قوة الشخصية ، وبخاصة عندما يكون هناك إمهال وترك فرصة للتدرب ونمو الأحاسـيس الذاتيـة ، ومـن الخطأ التكليف الفوري لمخلص يسترسل مع عفويته الموروثة وغفلته التـي تفرضـها عليـه آلام المرحلـة ، ولكن يكون الانتقاء و اكتشاف العناصر الصالحة ، ويكون تكليفها وتفجير زناد الشعور بالمسؤولية فيها ، ويتم تلقينها ، وتدريبها ، وتحسين بيئتها ، مع فتح مجـال الاسـتفادة مـن المعطيـات المتاحـة ، وإنضـاج عقولها بالحوار ، ثم التدرج في إسناد المهمات لها ، والعفو عن الخطأ الذي تجنح إليـه وهـدره ، بتأويـل قاعدة تعلم الصواب من الخطأ ، وقد يُسنَد الفقـير بكمبيـوتر ، ومجموعـة كتـب ، وبمواصـلات مجانيـة توفر عليه عناء انتظار وسائل النقل العامـة ، وربمـا يكـون توظيفـه وتفريغـه ، وإتاحـة مجـال تحصـيل الماجستير والدكتوراه له في الجامعـات المحليـة والخارجيـة في موضـوع تخصصـه نفسـه ، وتـوفير فرصـة زيارته لبلاد أُخرى ليقتبس من أساتذتها ويكتال من عطاء مؤسساتها ، وقد نتعمد طبع رسالة لـه يُبشرـ خلالها برؤاه وأُمنياته ، لتكون محور أحاديثه ، أو نمنحه فرصة المشـاركة في حلقـة تلفزيونيـة ، ليشـتهر ، فتُلزمه شهرته بالتعلم الزائد وتجميل أفكاره وتجديدها ، استثماراً لأحـوال الفطـرة التـي تـرغم صـاحبها على أن يربأ بنفسه عن الظهور بمظهر الرجعي المتخلف العتيق الثقافة والأفكـار الـذي تجـاوزه الـزمن ، وكل ذلك إذا شاء الله ممكـن ، والثقـة بالعنـاصر الصـاعدة أصـل في الخطـة التطويريـة ، وإذا نجحنـا في

توسيع الكتلة الدعوية التخصصية واستطعنا ترسيخ معادنها ومضاعفة ثقلها النوعي ومجال أدائها الحيوي : فإننا نكون قد كسبنا نصف معركة المصارعة مع التحديات ونحن جلوس بعد لم نَقُم ولم نلبس الدرع ، ورُبّ فرصة تلمحها عُصبة تتحاور فتدعونا إلى حُسن استقبالها ، فيتولد تفوق حاسم ، ثم رُبّ خطر خفي زاحف تحت ستار يكون التحذير منه فتكون العصمة من دهشة وحيرة والنجاة من تلاوم بين الدعاة يكسر النفوس ويُولّد الإحباط ، وعُرف الناس أن يكون اجتياز الصحراء بدليل يعرف الكثبان والآكام ، ويمهر في اقتفاء الأثر ، وأن تمخر سفنهم البحار بربّان له بوصلة ، وملاح له إلى نجوم السماء نظر ، ويفوز باللذة الجسور المتقن لفنون النزال والتملص والتمويه والتفلّت ، ويرجع صفر اليدين الهيّاب المتلفّت. * ولكن مما يبعث شعور الاطمئنان إلى المستقبل ويجعله واعداً : شيوع تيار التدريب الإداري والإبداعي في أقطار كثيرة ، وظهور أئمة فيه هم إلى النضوج والكفاية أقرب ، واكتشافنا أننا أغنياء في الرجال ، الذين يمكن أن يضعهم القادة عن أيمانهم ، وأن يصولوا بهم ويجولوا ، وتمام النجاح يكون في توسيع نطاق هذا الانتشار ، وفي تبادل الخبرات ، وتقاسم الأدوار ، ثم في الإلحاح في طلب العمق النوعي والجزالة الموضوعية والمكنة العلمية والعملية ، لأن العلم ثقيل ، ونحن معادن ، ولن يرضينا أن يكون أحدنا فضة ، فإن الذهب أفضل ، وإلكتروناته ضِعْفَ الكتروناتها ، ثم أقدر منه اليورانيوم ، فإنه مُشع ، والدعوة إشعاع في أصل مهمتها ، وإنه متفجر ، وتكاثف طبقات الران على القلوب والظلم على الشعوب لا يبددهما غير عمل تفجيري للمعاني يخرج عن الرتابة والدغدغة ومشية الاستحياء والخفر الأُنثوي ، ويدنو إلى أقرب من شبرين من الصراحة. * و يتضاعف إيجابنا وخيرنا عندما نعلم أن الأحزاب المنافسة تورطت في سلبية الدمويات وجهلت التاريخ ، وكانت قد بذلت كثيراً ، وقدّمت التضحيات ، وتحالفت مع العولمة ، وتم تقديم التمكين لها على طبق من لؤلؤ ، وكان من الممكن أن تحبّب نفسها للناس ، وتتزين ، وتؤسس لها قبولاً عند أهل العراق وعموم أُمة الإسلام من خلال خطة ذكية يكون فيها تدليس وستر لنواياها الخفية ، ولكنّ الله أبي ، وجعل العناصر الغوغائية الجاهلة تستبد داخل كل حزب منها بأموره ، وتم عزل القياديين المؤهلين للممارسة السياسية الذكية ،

واستطاع الفوضويون التحكم ، العراة عن علم التخطيط والرؤى الإستراتيجية ، فتشوهت الصورة ، وتم تقديم نموذج لحكم إرهابي يتوجس الناس منه خيفة ، وساعدت القنوات الفضائية المحلية الحزبية على تقديم صورة مثيلة شوهاء ، إذ ذاك مبلغ علمها ، والإناء ينضح بما فيه ، فتراجع الرصيد العالمي لهذه الأحزاب ، مما يجعل امتيازنا نحن بالإيجابيات والعمل المنهجي مضاعف الأثر بإذن الله. * وعلى كلٍ : فإن هذه المقالة أرادت منع الدعاة أن يستهلكوا أنفسهم في أحزان تولدها الدماء والقتول المستحرّة ، والعدول عن ذلك إلى توظيف المحنة إيجابياً لتحصيل نقلة تطويرية تدرأ محناً مستقبلية مثيلة ، مع إعلان الثقة بجيل الشباب الجديد الصاعد ، وأنه مؤهل لكي يقود إذا بذلنا له التدريب ، وخير هذا التدريب أن يكون مؤسسياً ، وأن نصنع له بيئة مُساعدة ، ومِنى لمن سَبق ، وإن لم يكن منك إقتداء بجدك السبعين حين كان يقف بسوق عكاظ خطيباً : فليس أقل من أن تكون مستمعاً عالي الذوق.



---

(1) (2) (3) (4) (5) ديوان نسائم الفجر الصادق / 10 / 6 / 37 / 4 / 41

(6) ديوان ملاحم من شموع القدس/ 32 منقول من موقع الرواق